رسالة القرآن

مجلة تعنى بمفاهيم القرآن العظيم ومقاصده

شهرية، تصدر - مؤقتا - كل ستة أشهر

العدد الأول، السنة الأولى: محرم – صفر – ربيع الأول: 1425هـ/ مارس- أبريل - ماي: 2004م.

اقرأ في هذا العدد مقالات يكتبها كل من الأساتذة:

د. الشاهد البوشيخي في تجديد الفهم للمصطلح القرآني

د. محمد جميل مبارك في تفعيل الخطاب العالمي للقرآن الكريم

د. أحمد العبادي في كشف الوحدة البنائية للقرآن المجيد

د. مبارك العلمي في مدارسة لإعجاز القرآن الحكيم

د. محمد السيسي في بحث السنن الاجتماعية في القرآن العظيم

د. فريد الأنصاري في مشاهدات قرآنية لبديع الزمان النورسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية:

رسالة الله

(أَلَمْ يَانِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ؟ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الاَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)؟ (الحديد:16)

من أنت؟

أنا، وأنت!.. ذلك هو السؤال الذي قلما ننتبه إليه! والعادة أن الإنسان يحب أن يعرف كل شيء مما يدور حوله في هذه الحياة، فيسأل عن هذه وتلك، إلا سؤالا واحدا لا يخطر بباله إلا نادرا! هو: من أنا؟ نعم، فهل سألت يوما نفسك عن نفسك: من أنت؟

ولعل أهم الأسباب في إبعاد ذلك وإهماله يرجع في الغالب إلى معطى وهمي، إذ نظن أننا نعرف أنفسنا فلا حاجة إلى السؤال! تغرنا إجابات الانتماء إلى الأنساب والألقاب، وتنحرف بنا عن طلب معرفة النفس الكامنة بين أضلعنا، التي هي حقيقة (من أنا؟) و(من أنت؟) ويتم إجهاض السؤال في عالم الخواطر؛ وبذلك يبقى الإنسان أجهل الخلق بنفسه، فليس دون الأرواح إلا الأشباح!

ولو أنك سألت نفسك بعقلك المجرد: من أنتِ؟ سؤالا عن حقيقتها الوجودية الكاملة؛ لما ظفرت بجواب يشفي الغليل! وإذن؛ تدخل في بحر من الحيرة الوجودية!

أنا وأنتَ، تلك قصة الإنسان منذ بدء الخلق إلى يوم الناس هذا.. إلى آخر مشهد من فصول الحياة في رحلة هذه الأرض! وهي قصة مثيرة ومريرة!

ولذلك أساسا كانت رسالةُ القرآن هي رسالة الله إلى الإنسان؛ لتعريفه بنفسه عسى أن يبدأ السير في طريق المعرفة بالله؛ إذْ معرفة النفس هي أول مدارج التعرف إلى الله. وليس صدفة أن يكون أول ما نزل من

القرآن: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)(العلق:1-2). ثم تواتر التعريف بالإنسان – بَعْدُ - في القرآن، في غير ما آية وسورة، من مثل قوله سبحانه: (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا. إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان:1-3) وكذلك آيات السيماء الوجودية للإنسان، الضاربة في عمق الغيب، من قوله تعالى: (ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ)(السجدة: 6-9).

ومن هنا أساسا كانت قضية الشيطان - بما هو عدو للإنسان - هي إضلاله عن معالم الطريق، في سيره إلى ربه! بدءا بإتلاف العلامات والخصائص المعرفة بنفسه، والكاشفة له عن حقيقة هويته، وطبيعة وجوده! حتى إذا انقطعت السبل بينه وبين ربه؛ أَلَّهَ نفسَه، وتمرد على خالقه!

ولم يزل الإنسان في قصة الحياة يضطرب بين تمرد وخضوع، في صراع أبدي بين الحق والباطل إلى الآن! فكانت لقصته تلك عبر التاريخ مشاهدُ وفصول! وكانت له مع الشيطان ومعسكره معاركُ ضارية، فيها كَرٌّ وفَرٌّ، وإقبالٌ وإدبار!

قال عز وجل حكايةً عن إبليس: (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلاً. قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا. وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً) (الإسراء:62-65).

من أجل ذلك كان للإنسان في كل زمان قصةٌ مع القرآن، وقصةٌ مع الشيطان!

وأما في هذا الزمان؛ فتنطلق (العولمة) في حلقة جديدة من حلقاتها؛ مستجيبةً لآخر صيحة من صيحات الشيطان، وأعتى جلبة من خيله؛ لتفرض على الناس فجورَها وبجورَها، في أحلك صورة من صور التمرد على الله رب العالمين! تنطلق بظلماتها العتيدة، لتغطي العالم الأرضي بأكمله، في محاولة لتوحيد السيطرة العالمية بيد إبليس! يسنده في ذلك عبيدُه هنا وهناك، من دجاجلة السياسة والإعلام والاقتصاد! تمهيداً لمرحلة الدجال الأكبر، حيث يكون العالم آنئذ أصغر وأصغر. وهذه المقدمات التي تراها الآن، مما يتطور من أحداث العالم اليوم؛ كلها أمارات دالة بوضوح؛ ولكن: (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)(ق:37).

في هذه الظروف نخرج بإذن الله مجلة (رسالة القرآن)، ونحن على يقين ألاَّ بقاء ولا حياة لهذه الأمة بغير هذا القرآن! وألا بعثة لها من جديد، وألا خروج لها من ظلمات هذا العصر العصيب إلا بهذا القرآن! كيف لا؟ وهو رسالة الله! كيف؟ وهو كلمة الله! ثم كيف؟ وهو نور الله! وبرهانه الكاشف للظلمات في النفس وفي المجتمع! أتكون معجزة محمد رسول الله أقلَّ أثرا من معجزة موسى أو عيسى عليهما الصلاة والسلام؟ كلا! وألف كلا! إن هذا القرآن هو معجزة الله الخالدة! فعصا موسى ما كان لها أن تخرق البحر؛ ولا أن تفجر الصخر؛ إلا وهي في يد موسى عليه السلام! فلما قبضه الله إليه انتهى تأثيرها إلى الأبد! ومعجزات عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأبرص والأكمه؛ إنما كانت مرتبطة بوجوده في الأرض، فلما رفعه الله إليه ارتفع معه إعجازه!

وابتلى الله - جل ثناؤه - اليهود والنصارى بالتوراة والإنجيل، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى حرفوهما تحريفا! فقال هؤلاء بتأليه المسيح، وقال أولئك بتأليه العُزَيْر؛ فضلت الحقيقة منهما إلى الأبد! ولكن لما مات محمد بن عبد الله، هذا النبي الأمي، عليه أفضل الصلاة والسلام؛ بقي

القرآن هدى للناس، وبقيت آياته بصائر للمستبصرين، من أول لحظة بُعَيْدَ وفاته إلى يوم الناس هذا!

تروي عائشة أم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما وأرضاهما: (أن رسول الله مات (...) فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله! - قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك! - وليبعثنه الله؛ فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم! فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله، فقبَّله، قال: بأبي أنت وأمي! طبت حيا وميتا! والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا! ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك! فلما تكلم أبو بكر جلس عمر. فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات! ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت! وقال: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»(الزمر:30)، وقال: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ»(آل عمران:144) فنشج الناس يبكون!)

قالت عائشة رضي الله عنها في تتمة الحديث: (ثم لقد بَصَّرَ أبو بكر الناسَ الهدى، وعرَّفهم الحقَّ الذي عليهم، وخرجوا به، يتلون: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ - إلى - الشَّاكِرِينَ»)([1]). فكانت الآيات وحدها هي علامات التبصير! فما أسكت الناسَ غيرُ القرآن! ولا أسكنَ حيرتَهم غيرُ بصائره الصارخة بالحق المبين! في موقف من أحرج المواقف التاريخية، التي مرت بجيل الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم.

لقد مات رسول الله، وبقي القرآن معجزة خالدة إلى يوم القيامة! بقي هو الوثيقة الوحيدة في الأرض بأسرها، التي يمكن أن تجزم القول عنها بدون أدنى تردد أو ريب؛ فتقول: هذا كلام الله! هذا كلام رب الكون! هذا كلام رب العالمين! وكفى بذلك حقيقة كونية كبرى، تملأ القلبَ رَغَباً ورَهَباً، لمن تَفَكَّر وتَدَبَّر!

---

[1] رواه بتمامه الإمام البخاري في صحيحه.

فالويل لك أيها الإنسان! هذا عمرك الفاني يتناثر كل يوم، لحظةً فلحظة، كأوراق الخريف المتهاوية على الثرى تَتْرَى! اُرْقُبْ غروبَ الشمس كل يوم؛ لتدرك كيف أن الأرض تجري بك بسرعة هائلة؛ لتلقيك عن كاهلها بقوة عند محطتك الأخيرة! فإذا بك بعد حياة صاخبة جزءٌ حقير من ترابها وقمامتها! وتمضي الأرض في ركضها لا تبالي.. تمضي جادةً غير لاهية – كما أُمِرَتْ - إلى موعدها الأخير! فكيف تحل لغز الحياة والموت؟ وكيف تفسر طلسم الوجود الذي أنت جزء منه ولكنك تجهله؟ كيف وها قد ضاعت الكتب كلها؟ ولم يبق بين يديك سوى هذا (الكتاب)!

فأين تجد الهداية إذن يا ابن آدم، وأنى تجدها؛ إن لم تجدها في القرآن؟ وأين تدرك السكينة إن لم تدركها في آياته المنصوبة - لكل نفس في نفسها – علامات ومبشرات في الطريق إلى الله؟ (إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا. وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)(الإسراء:9 - 10).

نَعَم، بقي القرآن العظيم إعجازا أبديا، يحي الموتى، ويبرئ المرضى، ويقصم قلوب الجبابرة، ويرفع هامات المستضعفين في العالمين، ويحول مجرى التاريخ! وكل ذلك كان - عندما كان - بالقرآن، وبالقرآن فقط! وهو به يكون الآن، وبه يكون كلما حَلَّ الإبَّانُ من موعد التاريخ، ودورة الزمان! على يد أي كان من الناس! بشرط أن يأخذه برسالته، ويتلوه حق تلاوته! وتلك هي القضية!

ماذا حدث لهؤلاء المسلمين؟ أين عقولهم؟ أين قلوبهم؟ أليس ذلك هو القرآن؟ أليس ذلك هو كلام الله؟ أليس الله رب العالمين؟ أليس الخلق - كل الخلق - عبيده طوعا أو كرها؟ ففيم التردد والاضطراب إذن؟ لماذا لا ينطلق المسلم المعاصر يشق الظلمات بنور الوحي الساطع، الخارق للأنفس والآفاق؟

ألم يقل الله في القرآن عن القرآن، بالنص الواضح القاطع: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا

مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ! وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)؟(الحشر:21). فهل هذه خاصية ماتت بموت محمد رسول الله؟ أم أن معجزة القرآن باقية بكل خصائصها إلى يوم القيامة؟ ورغم أن الجواب هو من المعلوم من دين الإسلام بالضرورة لكل مسلم؛ فإن رسول الله يلقي البشرى إلى هذه الأمة، نورا من الأمل الساطع الممتد إلى الأبد! فقد دخل عليه الصلاة والسلام المسجدَ يوما على أصحابه ثم قال: (أبشروا.. أبشروا..! أليس تشهدون ألا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا : بلى، قال : فإن هذا القرآن سَبَبٌ، طرفُه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به! فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً!)([2]) ومثله أيضا قوله بصيغة أخرى: (كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض)([3]). تلك حقيقة القرآن الخالدة، ولكن أين من يمد يده؟

ألم يأن للمسلمين – وأهل الشأن الدعوي منهم خاصة – أن يلتفتوا إلى هذا القرآن؟ عجبا! ما الذي أصم هذا الإنسان عن سماع كلمات الرحمن؟ وما الذي أعماه عن مشاهدة جماله المتجلي عبر هذه الآيات العلامات؟ أليس الله – جل ثناؤه – هو خالق هذا الكون الممتد من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؟ أليس هو – جل وعلا – رب كل شيء ومليكه؟ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ أوليس الله هو مالك الملك والملكوت؟ ذو العزة والجبروت؟ لا شيء يكون إلا بأمره! ولا شيء يكون إلا بعلمه وإذنه! أوليس الخلق كلهم أجمعون مقهورين تحت إرادته وسلطانه؟ فمن ذا قدير على إيقاف دوران الأرض؟ ومن ذا قدير على تغيير نُظُم الأفلاك في السماء؟ من بعد

---

[2] رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد فى المنتخب من المسند. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 713. نشر مكتبة المعارف بالرياض، لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الراشد. طبعة جديدة بتاريخ: 1415هـ/1995.

[3] رواه الطبري في تفسيره:4/31، نشر دار الفكر بيروت لبنان: 1405هـ. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير:4473.

ما سوَّاها الله على قدر موزون، (فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ إِيتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)؟(فصلت:10) ومن ذا مِنَ الشيوخ المعمَّرين قديرٌ على دفع الهرم إذا دب إلى جسده؟ أو منع الوَهَنِ أن ينخر عظمه، ويجعد جلده؟ ويحاول الإنسان أن يصارع الهرم والموت! ولكن هيهات! هيهات!

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيُوهِنَهَا *** فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ!

الموت والفناء هو اليقينية الكونية المشتركة بين جمع الخلق، كافرهم ومؤمنهم!

يولد الإنسان يوما ما.. وبمجرد التقاط نفَسِه الأول من هواء الدنيا يبدأ عمره في عَدٍّ عَكْسِي نحو موعد الرحيل..! فكان البدءُ هو آية الختام! هكذا يولد الإنسان وبعد ومضة من زمن الأرض تكون وفاته! (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ)(الرحمن:24-25).

ذلك هو الله رب العالمين، يرسل رسالته إلى هذا الإنسان العبد، فيكلمه وحيا بهذا القرآن! ويأبى أكثرُ الناس إلا تمردا وكفورا! فواأسفاه على هذا الإنسان! ويا عجبا من أمر هؤلاء المسلمين! كأن الكتاب لا يعنيهم، وكأن الرسول لم يكن فيهم! (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ!)(يس:30)

إن هذا القرآن هو الروح الذي نفخه الله في عرب الجاهلية؛ فأخرج منهم خير أمة أخرجت للناس! وانبعثوا بروح القرآن من رماد الموت الحضاري؛ طيوراً حية تحلق في الآفاق، وخرجوا من ظلمات الجهل ومتاهات العمى أدِلَّاءَ على الله، يُبْصِرون بنور الله ويُبَصِّرون العالم الضال حقائق الحياة! ذلك هو سر القرآن، الروح الرباني العظيم، لا يزال هو هو! روحا ينفخ الحياة في الموتى من النفوس والمجتمعات؛ فتحيا من جديد! وتلك حقيقة من أضخم حقائق القرآن المجيد! قال جل ثناؤه: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ **رُوحًا** مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا.

وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ. أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ) (الشورى:52ـ53).

من أنت؟ تلك قصة النبأ العظيم! نبأ الوجود الضخم الرهيب، من البدء إلى المصير! النبأ الذي جاءت به النُّذُرُ من الآيات: (وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا: يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ!)(الأنبياء:97). وقريبا جدا – واحسرتاه! – تنفجر به الأرض والسماوات! (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ! كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)(الأنبياء:104).

ذلكم هو النذير القرآني الرهيب! ولقد أعذر من أنذر! وما بقي لمن بلغه النبأ العظيم من محيص؛ إلا أن يتحمل مسؤوليته الوجودية، ويتخذ القرار، قراراً واحدا من بين احتمالين اثنين، لا ثالث لهما: النور أو العَمَى! وما أنزل الله القرآن إذْ أنزله إلا لهذا! ولقد صَرَّفَه على مدى ثلاث وعشرين سنة؛ آيةً آيةً، كل آية في ذاتها هي بصيرة للمستبصرين، الذين شَاقَهُم نورُ الحق فبحثوا عنه رَغَباً ورَهَباً؛ عسى أن يكونوا من المهتدين. وبقي القرآن بهذا التحدي الاستبصاري يخاطب العُمْيَ من كل جيل بشري! قال الحقُّ جل وعلا: (قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) (الأنعام:104).

من أجل ذلك؛ رجعنا آئبين - من بعد تجريب وتفكير - إلى رسالة الله، نقرؤها من جديد، نستغفره تعالى على ما فرطنا وقصرنا! قدوتنا في هذه السبيل رسول الله ﷺ بسنته الزكية، التي لم تكن في كل تجلياتها النبوية – قولا وفعلا وتقريرا - إلا تفسيرا للقرآن العظيم! وكفى بكلمة عائشة أم المؤمنين، في وصفه – عليه الصلاة والسلام – لما سئلت عن خُلُقِه ﷺ؛ فقالت بعبارتها الجامعة المانعة: (كان خُلُقُه القرآن!)[4] ولقد ضل وخاب من عزل السنة عن الكتاب!

---

[4] رواه مسلم.

نرجع إذن إلى القرآن، نحمل رسالته إن شاء الله – كما أمر الله – نخوض بها تحديات العصر، يحدونا اليقين التام بأن لا إصلاح إلا بالصلاح! وأن لا ربانية إلا بالجمع بينهما! وأن لا إمكان لكل ذلك – صلاحاً وإصلاحاً وربانيةً - إلا بالقرآن المجيد! وهو قول الحق - جل ثناؤها – في آية عجيبة، آية ذات علامات – لمن يقرأ العلامات – ولكل علامة هدايات. قال تعالى ذِكْرُه: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ) (الأعراف:170). التَّمْسِيكُ بالكتاب، وإقامُ الصلاة: أمران كفيلان برفع المسلم إلى منزلة المصلحين! (إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ!) وإن تلك لآية! ومثلها قوله تعالى: (وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ)(آل عمران:79). وقد قُرِئَتْ: (تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ) و(تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ)؛ للجمع بين وظيفتي التَّعَلُّم والتعليم، والصلاح والإصلاح، إذْ بذلك يكون التدارس لآيات القرآن العظيم، بما هي علامات دالة على الله، وراسمة لطريق التعرف إليه جل وعلا، في الأنفس والآفاق. وتلك هي السبيل الأساس للربانية، كما هو واضح من دلالة الحصر المستفادة من الاستدراك في الآية: (ولكن كونوا ربانيين).

ذلك هدفنا من إصدار هذه المجلة: (رسالة القرآن)، بهذا الاسم الدال على ما بيناه آنفا. فهي غرس يرجو الإخلاص لله، وتجريد الدعوة إليه من كل ما يعكر صفو الخطاب الرباني القرآني، مما يصرفه عن أولوياته الثابتة؛ إلى الالتفات إلى هذا الجانب أو ذاك، من المعارك الوهمية، التي ما أوقدها من أوقدها، من أهل الدجل والإضلال؛ إلا لصرف الدعاة إلى الخير عن وضوح القرآن وثوابته الساطعة!

فـ(رسالة القرآن) إذن؛ انطلاقٌ من القرآن، واشتغالٌ بالقرآن، وتخلقٌ بالقرآن! تلاوةً، ومدارسةً، وتدبراً، في طريق السير إلى الله، في النفس وفي المجتمع. لا نحيد عن ذلك إن شاء الله، لا، ولا نغير أو نبدل، حتى نلقى الله إن شاء الله. يحدونا في ذلك الحكمة القرآنية البالغة: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟)(القمر:22).

من هنا إذن؛ نُقَدِّم بحول الله للقراء الكرام هذا العدد الأول من (رسالة القرآن)، على رأس السنة الخامسة والعشرين من القرن الخامس عشر، من هجرة الرسول ، مُسْتَيْمِنِين بهذه الذكرى الإسلامية العظيمة، التي تُذَكِّر بنضج ثمرة القرآن، وحلول إبَّانِها في الغرس الأول من جيل الصحابة، من السابقين المهاجرين رضوان الله عليهم، مما غرسه الوحيُ في أنفسهم من حقائق الإيمان، ومما سرى بقلوبهم من روح الأمر الرباني، على مدى ثلاث عشرة سنة من التربية المكية. فتركوا خلفهم كلَّ شيء، متجردين لله! وانطلقوا مهاجرين بأشواقهم وأقدامهم إلى الله ورسوله، لا يحملون شيئا غير زاد التقوى واليقين! مُدْرِكين بل مُشاهِدين حقيقةَ أنَّ (مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ! وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(النحل:96). فكان منهم ما كان؛ وبذلك جعل الله منهم نواة الأمة التي صنعت التاريخ!

نصدر هذا العدد الأول إذن؛ مستصحبين هذه المعاني، لنقدم مقالات قرآنية، اخترنا لها ثلة متميزة من علماء القرآن، وأهل القرآن، من بعض أساتذتنا وزملائنا في الجامعات المغربية العريقة. وإنه ليشرفنا أن نقدم على رأسهم أستاذنا العلامة الدكتور الشاهد البوشيخي، في مقالة عن تجديد الفهم للمصطلح القرآني لدى مدرسة المنار، ثم عمدة سوس العالمة: الأستاذ الدكتور محمد جميل مبارك، في مقالة عن الخطاب العالمي للقرآن الكريم، وصاحب البصائر القرآنية: الأستاذ الدكتور أحمد العبادي في كشف الوحدة البنائية للقرآن المجيد، والناقد الغواص: الأستاذ الدكتور مبارك العلمي في مدارسة متميزة لإعجاز القرآن الحكيم، والرجل القرآني: الأستاذ الدكتور محمد السيسي في بحث السنن الاجتماعية في القرآن العظيم، ثم مقالة عن المشاهَدات القرآنية عند مجدِّد الدين ببلاد الأناضول في العصر الحديث: الأستاذ بديع

الزمان سعيد النورسي رحمه الله، كان الشرف في عرض أفكارها لعبد ربه كاتب هذه السطور.

وإننا إذ نصدر هذا العدد بإخراج فني متواضع، مطمئنون إلى ذوق الذين يستعذبون مذاق القرآن. فهم – بعد الله – سندنا، وحبهم لمجالس القرآن وذكر الله تعالى – مما نعرضه بموائد هذه الورقات - هو أملنا، على عزم أكيد بحول الله، وسعي حثيث؛ لتجويد العرض والإخراج، إن شاء الله. ولئن فاتنا اليوم كثيرٌ من جمالية التصفيف والألوان؛ فعسى ألا يفوتنا قليلٌ من جمالية القرآن!

وأخيرا نصدر هذا العدد الأول من (رسالة القرآن) بسم الله الرحمن الرحيم، عليه متوكلين، وبه مستعينين، وإليه منيبين، شاهدين ألاَّ حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. هو غايتنا، وهو مقصدنا، وإنما الموفق من وفقه الله.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

الخطاب العالمي في القرآن الكريم
السمات ومنهج الإبلاغ

للدكتور محمد جميل مبارك
جامعة القرويين كلية الشريعة/أكادير

مقدمة:

تتطلع البشرية اليوم بلهفة إلى من ينقذها من شفا الحفرة التي كانت عليها. وتبليغ وتفعيل الخطاب القرآني هما الكفيلان بإنقاذها من الهاوية التي تنقصها من أطرافها بابتلائها يوما عن يوم. ولن تنجو الأمة الإسلامية نفسها من تلك الهاوية إذا لم تقم بواجبها تجاه نفسها وتجاه غيرها وواجبها هو: **إبلاغ الخطاب القرآني بعد تفعيله في حياتها**.

فالخطاب القرآني يحتاج إلى مفتاح ذي سِنَّيْن:

إحداهما: تفعيله في حياة الأمة.

وأخراهما: إبلاغه إلى سائر البشر.

فإذا كان للمفتاح هاتان السنان ثم أدير على الوجه المطلوب، فسيفتح كل الأبواب ليدخل إليها هذا الخطاب القرآني الذي أنزل ليدخل إلى كل الأبواب في كل الأزمان وفي كل الأركان.

إن العالم البشري في حاجة إلى قيادة رشيدة، وهذه الأمة هي المرشحة لهذه القيادة إن فطنت لها، لأنها تملك مقومات القيادة الرشيدة التي يوفرها لها الخطاب القرآني.

وهذا البحث يعنى بإبراز سمات الخطاب القرآني العالمي التي تجعله صالحا لكل البيئات ولكل العقول، ولكل الأجناس، وإبراز تلك السمات مدعاة لانجذاب المخاطبين في العالم نحو القرآن الكريم إذا أبلغ بمنهج سليم.

كما يعنى هذا البحث بوضع ملامح لمنهج صالح لإبلاغ الخطاب القرآني، والهدف من هذين الأمرين هو: تفعيل الخطاب القرآني ليكون له الأثر الفعال في نفوس الناس، والإسراع بالعودة بهم إلى حظيرة الإيمان برسالة الإسلام العالمية.

I- سمات الخطاب العالمي في القرآن الكريم

من يتأمل الخطاب القرآني يجد فيه سمات تدفع ذوي البصائر من العالمين للاستجابة له إذا تركت له حرية الاستجابة، وأبرز هذه السمات:

1- سمة التحرير: ولعل أعظم سمة من سمات الخطاب القرآني هي سمة التحرير، ولذلك شغل هذا التحرير الجزء الأكبر من تاريخ دعوة الإسلام، فالعهد المكي كله يعالج قضية تحرير الإنسان، مما يجعل سمة التحرير أبرز سماته:

إنها سمة التحرير من كل سلطان على النفوس والأفراد والجماعات والمؤسسات إلا سلطانا واحدا.

إنها سمة تحرير الإنسان من نفسه بأهوائها ونزعاتها ونزواتها.

إنها سمة تحرير الإنسان من الإنسان بطغيانه وجبروته واستبداده.

والتاريخ البشري مليء بأمثلة لاستعباد المستبدين والطغاة للبشر، وتسخيرهم لرغباتهم وشهواتهم التي لا تعرف حدودا، وهذا الاستعباد ما زال موجودا إلى يوم الناس هذا، وإن اختلفت أشكاله وتعددت مظاهره، فهناك كثير من الأنظمة الدولية والمؤسسات المالية والمؤسسات الإعلامية تستعبد قواعد عريضة من البشر رجالا ونساء مثقفين وغير مثقفين، فتخدر عقولهم إما بالشهوات وإما بالشبهات، وإما بالإرهاب.

وقلما يصل إلى أذن أحد من هؤلاء المستعبدين المستذلين هذا الخطاب القرآني حتى يأتي إليه مذعنا؛ إذ يرى فيه تحريرا له من معاناته ومحنته.

وينتج عن هذا التحرير أمران متلازمان:

أحدهما: انجذابهم نحو الإسلام، **وثانيهما**: التحول الجذري في حياتهم بما ينسجم وسمة التحرير هذه.

وفي القرآن الكريم إشارات إلى هذا التحرير في مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ. وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران: 79-80).

ويلاحظ أن النص القرآني قرن بين العبودية للبشر وبين الربانية، فكانت الربانية تحريرا من العبودية للبشر.

إنها أيضا سمة تحرير العقل من الخرافة ومن كل ما يعطله عن الوصول إلى الحقائق دون حجاب، وما الآيات الداعية إلى التفكر والتعقل إلا مظهراً من مظاهر تحرير العقل من مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾(الأنعام:50) ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾(الأنعام:80) ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:44).

إنها سمة تحرير الناس من الاعتزاز بالعرق أو بالجنسية أو بالقومية، أو بغيرها مما يعتز به المعتزون، إذ الاعتزاز بذلك وحده استعباد واستذلال للبشر يكون ظاهرا أحيانا ويكون خفيا أحيانا أخرى.

ويحرر الخطاب القرآني الناس من كل ذلك حتى لا يبقى عليهم سلطان إلا سلطانا واحدا هو سلطان الله، ولا يعتزوا بشيء إلا بعبوديتهم لله.

ولا غرو إذن في أن يقضي النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عاما في ترسيخ جذور هذا التحرير في قلوب الناس.

وبهذه السمة يتحول كل مخاطب بهذا القرآن الكريم بعد أن يهتدي بهديه: »حرا كريما في نفسه، عبدا

خالصا لربه وإلهه، يوجه قواه العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وجنسه« [5].

والمسلمون الأوائل أدركوا هذه السمة إدراكا عميقا حين كانوا يشعرون بأنهم أحرار، وبأن كل الناس يجب ألا يحال بينهم وبين حريتهم، ومن الأدلة على قوة ذلك الشعور عندهم الكلمة المأثورة عن عمر رضي الله عنه: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار)، والكلمة التي قالها ربعي بن عامر لقائد جيوش الفرس: (إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده...).

2- سمة التوحيد: وهذه السمة فرع عن السمة قبلها، وهي أهم مظاهر التحرير على الإطلاق، إذ معناها: تحرير الإنسان من كل شوائب الشرك والوثنية، والقضاء على عبودية إنسان لإنسان، وعلى عبودية شعب لشعب، والخطاب القرآني يُحل محل هذه العبودية، العبودية والحاكمية لله وحده.

ولذلك كانت عناية الخطاب القرآني بغرس عقيدة التوحيد في القلوب قبل عنايته بجانب التشريع العملي والتنظيم الحياتي؛ إذ التوحيد بمنزلة جذور الشجرة (شجرة الدين) والتشريعات العملية بمنزلة الفروع والثمرة، والشجرة لا تبلغ فروعها السماء، ولا تؤتي ثمارها إلا إذا كان أصلها ثابتا في الأرض، وبقدر ما تضرب جذور الشجرة في أعماق الأرض تشمخ فروعها في عنان السماء، وإذا تحرر الأصل تحرر الفرع تبعا له [6] .

والملاحظ أن أغلب النداءات المصدرة إلى الناس في القرآن الكريم وعددها ثمانية عشر نداء وتحمل خطابات عالمية كان موضوعها دعوة الناس للتحرر والتوحيد كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة:21)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

---

[5] - تفسير المنار، 11/164.

[6] - ينظر معالم في الطريق لسيد قطب، ص: 31-32.

وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا(النساء:180)، وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِيناً. فَأَمَّا الَّذِينَ ءامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (النساء: 174-175)، وقوله: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(الأعراف:158)

وقوله: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ(يونس:104-106)، وقوله: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ(لقمان:33).

وكذا أغلب النداءات المصدرة إلى بني آدم، وعددها خمسة [7].

3- سمة الوحدة (وحدة البشرية) فالخطاب القرآني يؤكد أن البشر كلهم من أصل واحد لا يتفاضلون من حيث هذا الأصل، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ(النساء:1).

4- سمة المساواة: وهي سمة لازمة عن سمة الوحدة، فإذا كانت البشرية مشتركة في وحدة الأصل فإن الذي يلزم عن هذه الوحدة المساواة بين كل فروع هذا الأصل ولسمة المساواة مظاهر متعددة أهمها:

- **المساواة في القيمة الإنسانية من حيث الأصل** كما قررها قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(الحجرات: 13).

---

[7] - أربعة في الأعراف والخامس في يس.

- المساواة في صلاحية توجه الدعوة إليهم: فكل الناس سواسية في كونهم صالحين لتوجه الدعوة إليهم كما في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾(يونس:2)، وقوله سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم: 1) إلخ.

- المساواة في حظ العدالة في الحكم

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء:58)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾(النساء:105)، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:8).

- المساواة في عدالة الله، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(يونس:44)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ(﴾182(آل عمران:182)، وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾(النساء:123).

- المساواة في المعاملة: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾(الأعراف:85) ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾(المطففين:1-2).

5- سمة التوازن: وتتجلى هذه السمة في المواءمة بين الروح والمادة، وبين الدنيا والآخرة، وبين العلم والدين، بعد أن كانت تتراءى خارج الخطاب القرآني متناقضات لا يؤخذ ببعضها إلا برفض بعضها الآخر.

ويتجلى هذا التوازن في مثل قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الأخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾(القصص:77).

وبهذه السمات التي ذكرت، وبغيرهامما لم أذكر أحدث القرآن الكريم بخطابه العالمي ثورة في البشرية كلها، فيه انقلبت الأوضاع، وتغيرت الطبائع فكان كل من استجاب لهذا الخطاب القرآني يحدث فيه انقلاب وتغير وثورة في معتقداته، وفي أخلاقه، وفي عقله، وفي عاطفته، وفي كل شؤون حياته.

ومن الأدلة التاريخية القاطعة على إحداث الخطاب القرآني لهذه الثورة البشرية، أن الناس – عربا وغيرهم – كانت لهم قبل ورود الخطاب القرآني وقبل الاستجابة له معتقدات وأفكار وعواطف وأخلاق، ثم تحولت معتقداتهم وأخلاقهم وأفكارهم وعواطفهم تحولا كاملا، ولا يمكن أن يفسر ذلك التحول تفسيرا مقبولا إلا بكونه ثمرة لهذا الخطاب القرآني العالمي، ولبيان رسول الله صلى الله عليه وسلم له قولا وعملا وخلقا.

وهذا من خصائص الأسلوب »الذي نزل به القرآن فقلب طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وحولها إلى ضدها علما وعملا بما لم يعهد له نظير في البشر، فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه« [8].

وتصاحب هذه السمات سمة عامة, وهي سمة جاذبية الخطاب القرآني بأسلوبه ومضمونه، وقد تجلت هذه السمة أكثر في جانبها الأسلوبي – في هؤلاء الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم وأساليبهم في الخطاب. وقد سجلت السيرة تلك الكلمة التي نطق بها الوليد بن المغيرة حين استمع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتلو عليه بدايات سورة "فصلت".. ولولا المكابرة والضغوط التي تعرض لها الوليد لاستجاب لتلك الجاذبية التي تعرضت لها نفسه وعقله وعاطفته، لكنه اضطرب بين الاستجابة لتلك الجاذبية وبين الاستجابة للضغوط وهو ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ.

---

[8] - تفسير المنار: 11/165.

ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ)(المدثر:18-23).

وهذه الجاذبية هي التي تجذب المشركين للاستماع إلى القرآن الكريم حين يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم،حتى إن صناديد الكفر كانوا من شدة خوفهم من انجذاب الناس نحو الخطاب القرآني،و ينهون عن الاستماع إلى القرآن حين يتلى، وينصحون بالتشغيب على من يقرؤه كما قال تعالى: وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(فصلت:26) ومنعوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه من تلاوة القرآن في مسجده الذي اتخذه بفناء داره؛ درءا لافتتان نسائهم وأطفالهم بتلاوته.

وكان أهم شروط صلح الحديبية – سنة: ست من الهجرة - السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين، وكانت هذه المخالطة سببا لاستماع أولئك للخطاب القرآني أولا، وفي دخولهم في دين الله أفواجا ثانيا »فكان انتشار الإسلام في أربع سنين بالسلم والأمان أضعاف انتشاره في ست عشر سنة من أول الإسلام « [9].

[9] - السابق: 111/169.

منهج إبلاغ الخطاب القرآني العالمي

لا جرم أن المسلمين عامة، ودعاتهم وعلماءهم ومفكريهم خاصة يتحملون أمانة إبلاغ الخطاب القرآني للعالمين وبذلك يمتازون عن غيرهم؛ فالأمم السابقة كانت مكلفة باستقامتها لله في ذاتها لا غير كما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(البينة:5) أما هذه الأمة المسلمة فمكلفة بما كلفت به الأمم السابقة وزيادة، وهذه الزيادة هي تكليفها بهداية البشرية والشهادة عليها كما يتضح في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(البقرة:143)[10].

وعلى الأمة حين تريد إبلاغ الخطاب القرآني العالمي واجبان عظيمان تتكون من مضمونهما بعض ملامح منهج سليم لإبلاغه:

الواجب الأول: فهم الخطاب القرآني فهما كليا شاملا مستندا إلى إيمان عميق بأن القرآن الكريم قادر على أن يغطي حركة الكون كله بجميع أزمنته وأمكنته، وفهم القرآن بهذا الشمول يعني فهم رسالة الإسلام كلها، وهذا الفهم هو المطلوب وإن كان عزيزا!

ويتفرع عن هذا الواجب العظيم واجبات أخرى أهمها:

1- إبلاغ الخطاب القرآني بنظرته الشمولية للكون والحياة والإنسان، بعيدا عن النظرة التجزيئية؛ فإذا كان الخطاب القرآني يحمل رؤية شمولية، فلا يجوز لمبلغه أن يبعضه ليقدم جزءا منه ويترك أجزاءه. وهذا الواجب لا يتنافى مع قضية التدرج في الخطاب القرآني، فالجهتان منفكتان، فتقديم النظرة الشمولية التي في الخطاب القرآني يعني أن يبلغ المخاطب مضامينه المترابطة مجموعة غير مجزأة، ثم عند التنفيذ يمكن أن

---

[10] - ينظر: رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر لمحمد قطب، ص 121-122.

يتدرج المخاطب من جانب إلى جانب حتى يستوفي كل جوانب الخطاب القرآني.

وتقديم الخطاب القرآني بنظرته الشمولية يفيد الإنسانَ من ثلاث جهات:

الأولى: إدراك المقاصد المتكاملة للخطاب القرآني من توحيد وعبادة وأخلاق وأحكام.

الثانية: الخلاص والتخليص من الوقوع في الإيمان ببعض الخطاب القرآني والكفر ببعض.

الثالثة: إزاحة غشاوة الشبه عن أعين الذين يقدم إليهم الخطاب حين يطرحون ما عندهم من شبه حول الإسلام؛ فلا يمكن إزاحة غشاوة الشبه في قضية تعدد الزوجات (مثلا) إذا لم تفهم في إطارها الكلي العام، أو في قضية التفاوت في الإرث بين الذكر والأنثى إذا لم توضع في إطارها العام، بل لا بد من النظر إلى الخطاب القرآني على أنه: »منظومة متكاملة تتماسك أجزاؤها وتتفاعل فيما بينها لتشكل وحدة عضوية متحركة حيوية لا تجعل من الممكن أن يفهم أي جزء على حدة، وإنما ضمن وضعه في الإطار العام أو من خلال علاقته بالوحدة الكلية أي بالأجزاء الأخرى مجتمعة وفي آن واحد «[11].

وهذه النظرة الشمولية للخطاب القرآني يجب أن تشمل كل الأحكام وكل العلاجات التي يقدمها لمشاكل الحياة؛ فإذا أراد مبلغ الخطاب القرآني أن يبرز للمخاطبين منهج الإسلام في محاربة السرقة من خلال قوله تعالى مثلا: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾(المائدة:38)، فيجب عليه أن يرصد المشكلة من جميع جوانبها التي عالجها بها القرآن، ولا يقتصر على تقديم الآية التي تنص على الحد وحدها، بل يجب أن يقدم كل الحلول التي عالج بها القرآن هذه المشكلة الاجتماعية، من تحسين أحوال المعيشة للأفراد، ومن تربية الفرد

---

[11] - الإسلام في معركة الحضارة، منير شفيق، ص: 61.

وتكوينه خلقيا، وإيقاظ حس التقوى في الضمير، إلى قطع اليد بوصفه آخر الحلول [12].

الواجب الثاني من الواجبين العظيمين: إتقان أساليب هداية البشر بالخطاب القرآني؛ فالواجب الأول فهم للمضمون، والواجب الثاني فهم للأسلوب المؤثر في الواقع البشري الذي يراد توجيه الخطاب القرآني إليه؛ فهما إذن واجبان بمنزلة منهجين: منهج للفهم، ومنهج للتوصيل والإبلاغ والتعدية؛ وإن فصلت قلت: هي ثلاثة مناهج: منهج فهم، ومنهج عمل، ومنهج تعدية.

ويتفرع عن هذا الواجب العظيم كسابقه واجبات أخرى أهمها:

1- فهم واقع العالم المخاطب: فالذي يتعامل مع القرآن الكريم أو يبلغ خطابه إلى العالم لا بد له من فهمين، فهم للخطاب القرآني نفسه، وفهم لواقع العالم الذي يقدم إليه ذلك الخطاب.

وقد عد الشيخ رشيد رضا من الأمور التي تتحقق بها المرتبة العليا في التفسير: »العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم ...« [13].

فإذا أريد فهم الواقع العالمي المعاصر فأول ما يجب إدراكه لتحقيق هذا الفهم هو هذا التغيير الذي ما فتئ يلاحق عالمنا اليوم بوتيرة أسرع مما كان عليه الأمر من قبل، ومن ثم يجب وضع هذا التغيير السريع في الحساب حين إبلاغ الخطاب القرآني إلى العالم المعاصر بقومياته، وجنسياته، وعوائده وفلسفاته، فلا بد له من عمق تلك القوميات، وأحوال تلك الجنسيات، ومرجعيات تلك العوائد، فالعالم الغربي له مكونات: فتحلل تلك المكونات تحليلا دقيقا من أجل فهم خصائص تفكيره وفهم نظرته للدين، وفهم الفلسفة التي يقيم عليها حياته المادية.

---

[12] - ينظر مزيد من التفصيل والأمثلة في المرجع السابق، ص: 66 وما بعدها.

[13] - تفسير المنار: 1/21.

وما ذلك بالأمر السهل، ولا بالأمر الذي يترشح له فرد واحد، بل هو عمل المؤسسات والهيئات المكلفة بإبلاغ الخطاب القرآني للناس كافة.

2- تقديم الأول فالأول في إبلاغ الخطاب: فيلس بمطلوب طلبا لازما أن يقدم الإسلام للعالم جملة واحدة، بل يقدم الأساس أولا وهو أساس الإيمان: الإيمان بالخالق سبحانه إيمانا صحيحا سالما من كل شوائب الشرك، ثم الإيمان بالرسول الخاتم وبرسالتهصلى الله عليه وسلم، ثم الإيمان بالآخرة، ثم الأحكام العملية من عبادات ومعاملات وأخلاق، ثم نظام حكم.

وبهــذا المنهج في الإبلاغ يبــني العــالم المخــاطب تصـوراته بنـاء متناسـقا مكونـا من أسـس ثم أعمـدة، ثم سقف.

وقد أعطانا النبي صلى الله عليه وسلم نموذجا للتبليغ في وصيته لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى أهل اليمن وقال له:»إنك ستأتي قوما أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب« [14].

وهذه الوصية النبوية مأخوذة من منهج القرآن الكريم نفسه، فقد فرضت فيه الفرائض بأسلوب تدريجي، وفهم بعض العلماء من هذا الأسلوب: »أن الأحكام كما نزلت بطريقة تدريجية فإن التدرج فيها مطلوب بعد نزولها أيضا، وترتيب ضروراتها هو دائما قائم على ترتيب نزولها« [15].

---

[14] - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد على الفقراء، حيث كانوا، وفي كتاب المغازي، باب بعث ابن موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، وفي مواضع أخرى، وأخرجه غيره.

[15] -واقعنا ومستقبلنا تجاه الإسلام، وحيد الدين خان، ص: 38.

3- دلالة حال مبلِّغ الخطاب على مضمون الخطاب؛ فقد تكون الحالة التي يكون عليها مبلِّغ الخطاب أقوى تأثيرا في نفوس المخاطبين من الخطاب نفسه! حين يرون تأثير الخطاب في غيرهم فيخضعون له؛ رغبة في انتقال ذلك الأثر- الذي عاينوه – إليهم. أما إذا كانت حالة مبلِّغ الخطاب تنبئ عن القطيعة بينه وبين الخطاب فلن يكون للخطاب ذلك التأثير المنتظر.

وعلاقة الأمة اليوم بالخطاب القرآني علاقة لا تسر، وهو ما جعل الراغبين في التعامل مع الخطاب القرآني من غير المسلمين يتجاوزونه ليتعاملوا مع الخطاب مباشرة أو بواسطة وسطاء غير مأمونين، لما يرون في المسلمين من عكس الصفة التي حلّى الله بها عباد الرحمن في التعامل مع آياته، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(الفرقان:73).

فلا بد أن يظهر أثر الخطاب القرآني في نفوس من يتكفلون بإبلاغه، نعم قد يكون المبلغ إليه الخطاب أرقى حالا وأعظم سعادة بالخطاب من مبلغه كما في الحديث الصحيح: (فَرُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع، ورُبَّ حاملِ فِقْهٍ إلى من هو أَفْقَهُ منه!)[16]. لكن أفعل التفضيل يدل على المشاركة فلا بد من ظهور الأثر وإن كان يختلف في بعض الحالات من مبلغه إلى المبلغ.

والناس مولعون برواية "النموذج"، فالذي يبلغ الخطاب ينتظر منه تقديم نموذجين: نموذج عام يتمثل في الأمة وما صنع فيها الخطاب القرآني، ونموذج خاص يتمثل في المباشر لإبلاغ الخطاب، والمخاطبون في كثير من الأحيان لا يرضون عن النموذجين كليهما، فيكون عدم الرضا حاجزا منيعا بينهم وبين الخطاب القرآني العالمي، ومن ثم لا بد من الاهتمام بهذا الواجب؛ لأن مما يبلغه المخاطب الخطاب القرآني يصنع النموذج في النفوس وفي المجتمعات، وفي الأمم، وفي الحضارات،فلا أقل من أن يكون مبلغ الخطاب في مستوى ذلك الخطاب، وأن

---

[16] - أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

يكون ثمرة لبناء الخطاب القرآني للإنسان. وإلا كان كمن قال الله فيهم: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:44).

4- المؤاخاة بين المتقابلات، بالمزج بين خطاب العقل وخطاب العاطفة، والمزج بين الترغيب والترهيب، والتوجيه والتخويف، وتغليب أحدهما على الآخر كلما اقتضت نفسيات المخاطبين ذلك.

ـــــــــــانتهى.

الوحدة البنائية للقرآن المجيد

بقلم الدكتور أحمد العبادي (جامعة القاضي عياض مراكش)

بنائية القرآن المجيد:

إن من أنفس ما اهتدى إليه العقل البشري عبر قرون متتالية من الكدح والمكابدة في المجال المعرفي ، هو مفهوم المنهج (Methode) الذي هو عبارة عن آليات متضافرة للكشف عن الحقائق المعرفية المختلفة في مجالاتها المتعددة والمتنوعة ، والمنهج ينصبغ بصبغة المجال الذي يُعمل فيه . وقد أدى المنهج إلى بروز مفهوم أدق ، وهو مفهوم المنهجية (Méthodologie) والتي هي عبارة عن إطار مرجعي لأفكار ينتظمها ناظم موحد ..

ولم يهتد العقل البشري إلى المنهجية في المجال الكوني إلا بعد أن اكتشف أن الظواهر الكونية موحدة عضويا ، انطلاقا من بنائية الكون ووحدته العضوية .. وقد

عدت هذا المفهوم إلى المجالات الاجتماعية والإنسانية مجموعة من المدارس [17].

وفي مقابل بنائية الكون ، التي أطلق اكتشافها إمكان البحث المنهاجي الذي فجر كل هذه العطاءات المعرفية والمادية التي نشهدها اليوم ، فقد منّ الله سبحانه بأن أقر بين ظهرانينا القرآن ترتيلا . وهذا الوحدة العضوية في القرآن المجيد ، والتي تشكل أحد أهم وجوه الإعجاز فيه ، تفتح المجال أمام القراءة المنهجية للآيات / البصائر صعدا نحو مآلات معرفية لا حصر لها .

ولطالما دندن علماؤنا حول بنائية القرآن تحت عناوين مختلفة ، فتارة سموها النظم ، وتارة سموها الترتيب ، وأخرى سموها الاتساق ، أو المعمارية أو البنائية مباشرة .

الإمام عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم:

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله في معرض حديثه عن سر إعجاز القرآن معبرا عن وعيه المبكر ببنائية القرآن :

" أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خير ، وصورة كل عظة وتنبيه ، وإعلام وتذكير ، وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان .

---

[17] - بلغت البنائية من حيث هي اتجاه فكري وفلسفي ذروتها في أواخر الستينيات من القرن الميلادي المنصرم، وقد وصل المد البنائي إلى ميادين شديدة التنوع، ففي مجال اللسانيات كان جاسكون وشومسكي يقودان حركة نشطة اتخذت أنموذجا من لدن العديد من المشتغلين بالعلوم الإنسانية ، ففي ميدان التحليل النفسي ، كان "لاكان" ، وفي مجال النقد الأدبي نجد " بارت " ، وفي المجال الفلسفي : " فوكو" ، ويبقى من أهم روادها " ليفي ستروس " ، الذي يعتبر المؤسس للفلسفة البنائية في العصر الحديث ، و " لوي ألتوسير" الذي حاول تجديد الماركسية من هذا المدخل البنيوي . [انظر : فؤاد زكريا ، الجذور الفلسفية للبنائية ، 2-3] .

وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعُشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما ، لم يدع في نفس بليغ منهم – ولو حك بيافوخه السماء – موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تقول ، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول .." [18] .

ونظرية النظم عند هذا الإمام في عمومها كلها تؤدي هذا المؤدى[19] .

وهو يعبر عن ذلك بجلاء حين قوله : " وجملة الأمر أنه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة ، إن لم يقدم فيه ما قدم ، ولم يؤخر ما أخر ، وبدئ بالذي ثني به ، وثني بالذي ثلث به ، لم تحصل تلك الصورة وتلك الصفة . فينبغي أن تنظر في الذي يقصد واضع الكلام أن يحصل له من الصورة والصفة" [20] .

وقد انتبه إلى بنائية القرآن المجيد طائفة من العلماء الأفذاذ الآخرين ،ذكر طرفا منهم الإمام برهان الدين البقاعي رحمه الله في كتابه النفيس "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" حيث قال في معرض حديثه عن ترتيب أجزائه:" ... وطالعت على ذلك كتاب العلامة أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الأندلسي [21]. "**المعلم بالبرهان في ترتيب سور القرآن"** وهو لبيان مناسبة تعقيب السورة بالسورة فقط ، لا يتعرض فيه للآيات ... ثم ظفرت بكتاب الإمام بدر الدين الزركشي المصري الشافعي ، سماه : " البرهان في علوم القرآن "، فرأيته ذكر فيه ما يعرّف بمقدار كتابي هذا ، فقال في النوع الثاني منه : (وهو في

---

18 - دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط. 2، 1401/1989 .

19 - انظر لمزيد من التفصيل : دلائل الإعجاز .

20 - دلائل الإعجاز ، ص: 364 .

21 - هو الغرناطي صاحب ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ، توفي سنة 708هـ .

المناسبة وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ، وممن أكثر منه : الإمام فخر الدين ، وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في **الترتيبات والروابط** .
وقال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المهتدين : ارتباط آية القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة : متسقة المعاني ، **منتظمة المباني** علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد ...
ثم فتح الله عز وجل لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه إليه) " [22] .
ولابن حزم الأندلسي رحمه الله كلام أشبه ما يكون بكلام ابن العربي ، حيث قال عن مصدر الشريعة أنه » كلفظ واحد وخبر واحد موصول بعضه ببعض ، ومضاف بعضه إلى بعض ، ومبني بعضه على بعض « [23].
ونقل البقاعي عن الزركشي قوله : » قال بعض مشايخنا المحققين : قد وهم من قال : لا يطلب للآي الكريم مناسبة ، لأنها حسب الوقائع المتفرقة ، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوفيق ، ما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البيّن أسلوبه ونظمه الباهر ، والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها تكملة لما قبلها ، أو مستقلة، ثم المستقلة : ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك علم جم . «[24] وقال رحمه الله : » لا وقف تام في كتاب الله ، ولا على آخر سورة قل أعوذ برب الناس ، بل هي متصلة – كونها آخر القرآن – بالفاتحة التي هي أوله ، كاتصالها بما قبلها ، بل هي أشد « [25].
وللإمام الشاطبي رحمه الله في موافقاته إشارات مشرقة إلى بنائية القرآن المجيد ، ووجوب رد بعضه إلى

---

[22] - نظم الدرر ، 1/6-7.
[23] - الإحكام في أصول الأحكام ، 2/35 ، و 8/518 ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط .2، 1983.
[24] - نظم الدرر ، 1/8 .
[25] - نظم الدرر 1/15.

بعض ، من ذلك قوله رحمه الله :» والقول في ذلك ، والله المستعان، أن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل ، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان ، فالذي يكون على بال من المستمع والمتفهم ، والالتفات إلى أول الكلام وآخره بحسب القضية وما اقتضاه الحال فيها لا ينظر في أولها دون آخرها ولا في آخرها دون أولها. فإن القضية – وإن اشتملت على جمل- فبعضها متعلق بالبعض ، لأنها قضية واحدة نازلة في شيء واحد . وإذ ذاك يحصل مقصد الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق النظر في أجزائه فلا يتوصل به إلى مراده« [26].

ويضرب لذلك أمثلة بعدد من سور القرآن[27] . وقال رحمه الله :

» وهل للقرآن مأخد في النظر على أن جميع سوره كلام واحد بحسب خطاب العباد لا بحسبه في نفسه ؟ فإن كلام الله في نفسه كلام واحد ، لا تعدد فيه بوجه ولا باعتبار ... وذلك أنه يبين بعضه بعضا ، حتى إن كثيرا منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضوع آخر أو سورة أخرى ، ولأن كل منصوص فيه من أنواع الضرورات – مثلا- مقيد بالحاجات ، فإذا كان كذلك فبعضه متوقف على البعض في الفهم . فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد ، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار«[28].

ومن أعزم وأجلى ما كتب حول بنائية القرآن تلك الورقات الوضيئة التي كتبها د. محمد عبد الله دراز في كتابه القيم "النبأ العظيم " وسوف نجتزئ منها بفقرات نرى فيها تعبيرا واضحا عن إدراكه العميق لهذه البنائية ، محيلين على باقيها ليراجع في موضعه ، يقول رحمه الله : » قدر في نفسك أن رجلا نزل واديا فسيحا ليس عليه بنيان قائم ، وليس به شيء من مواد البناء ولا أنقاضه ، فما لبث أن أحس برجفة أرضية أو عاصفة سماوية ، وإذا قمة الجبل تنصدع قليلا فتلقي بجانبه صخرا أو بضعة

---

[26] - الموافقات : 3/413-414.
[27] - أنظر الموافقات ، 3/415-419.
[28] - الموافقات ، 3/420.

صخور . ثم تمضي فترة طويلة أو قصيرة ، وإذا هزة ثانية تلقي إليه شظيات من الحديد والحمم أو نثارات من الفضة والذهب ... أترى هذا الرجل ، أو أن أحدا من العقلاء يستطيع منذ اللحظات الأولى أن يضع تصميمه على إقامة مدينة جامعة التخطيط والبنيان ؟ ... فما يدريه .. لعل هذه الظواهر لا تتكرر أمامه نزلة أخرى ، ثم ما يدريه إن عادت ، كم مرة تعود ؟ وما نوع المادة التي تتساقط معها كل مرة ، وكم عدة القطع في كل مادة من هذه المواد ، وكم عدد الأبنية التي يمكن إقامتها منها ؟ وما النظام الهندسي الخاص بكل بناء سعة وارتفاعا ، ونقشا وزخرفا ؟ وما ذرع الفضاء الذي ستشغله هذه الأبنية جملة ؟

في هذا الجو المملوء غموضا وإبهاما لا يجرؤ عاقل أن يغامر بتصميمه في بناء كوخ حقير ، فضلا عن بلد كبير ، فضلا عن أن يهب من فوره لإنفاذ عزمه فيمضي في مهمة البناء منذ وصلت إليه تلك اللبنات الأولى !

ولئن افترضت إنسانا غامر هذه المغامرة ، وأن المقادير سارعت في هواه ، وأسعفته بما شاء من مواد البناء الذي تخيله وتمناه ، أتراه يعمد إلى مخاطرة أخرى ، فيتخذ له في البناء أسلوبا يراغم به قانون الطبيعة ، بأن يؤلي على نفسه ألا يدع لبنة تصل إلى يديه إلا أنزلها – في ساعة وصولها – منزلها الخليق بها حيث كان ؟ ذلك على حين أن تلك اللبنات لم تتساقط إليه متجانسة مرتبة على ترتيبها في وضعها المنتظر ، بل جعلت تتناثر خفافا وثقالا مختلفا ألوانها وأحجامها، وعناصرها وطاقاتها ، وربما وقعت له الزخارف والشرفات ، قبل أن تقع له بعض القواعد والساقات، وربما وقعت له على التوالي أجزاء ناقصة لتوضع في أماكن متفرقة من أبنية متنائية ، أفلا تراه إن ذهب يضع كل جزء ساعة نزوله في موضعه المعين ، لم يجد مناصا من أن يبدد أجزاء البناء هنا وهنا على أبعاد غير متساوية ولا متناسبة ، فيقارب بينها طورا ، ويباعد طورا ، ويعلو بها تارة ، وينـزل تارة أخرى ، حتى

لقد يبني أعلى البيت قبل أسفله ، ويمسك المحمول معلقا بدون حامله !

كيف يطيق بشر – كائنا من كان – أن يضطلع بهذه المهمة ؟ ثم كيف يمضي قدما في هذا الأمر إلى نهايته ، فلا يعود إلى جزء ما ليزيله عن موضعه الذي أحله فيه أول مرة، أو ليلتجئ فيه إلى كسر أو نحت أو حشو أو دعامة ؟ ثم كيف تكون عاقبة أمره أنه في الوقت الذي يضع فيه آخر لبنة على هذا المنهج ، يرفع يده عن مدينة منسقة ، ليس فيها قصر ولا غرفة ولا لبنة ولا جزء صغير ولا كبير ، إلا وقد نزل منـزلة الرصين الذي يرتضيه ذوق الفن ، حتى لو تبدل واحد منها مكان غيره لاختل البنيان أو ساء النظام ؟ أليس ذلك إن وقع يكون تحديا لقدرة البشرية جمعاء ؟ ألا فقد وقع مصداق هذا المثل في مسألتنا ، وإليك البيان :

(أما) الرجل فهو هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم .

(وأما) المدينة الجامعة التي شرع في بنائها منذ وقعت له لبناتها الأولى فذلك الكتاب العزيز الذي أخذ هو منذ وصلت إليه باكورة رسائله يرتب أجزاءه ترتيب الواثق المطمئن إلى ان سيكون له منها ديوان تام جامع .

(وأما) تلك العوامل الفجائية التي جعلت تستنزل من مختلف معدن الجبال ما ركبت منه هذه القصور المشيدة ، فتلك الأحداث الكونية الاجتماعية ، والمشاكل الدينية والدنيوية التي كانت تعترض الناس آنا بعد آن في شؤونهم العامة والخاصة ، فكان يتقدم بها المؤمن منهم مستفتيا ومسترشدا ، والمكذب مستشكلا ومجادلا ، وكان على وفق ذلك يتنزل الكلام نجما نجما ، بمعان تختلف باختلاف تلك المناسبات والبواعث ، وبمقادير تتفاوت قلة وكثرة ، وعلى طرق تتنوع لينا وشدة ، ومن هذه النجوم المختلفة المتفرقة صارت تتآلف تلك المجاميع المسماة بالسور ... « [29] .

---

[29] - النبأ العظيم ، 147-149.

وقد أوردت هذا النص – على طوله – لنفاسته وملاءمته الكلية لسياق الكلام عن البنائية ، فلم أرد أن أثلمه بأي نوع من أنواع التصرف .. ويقول رحمه الله :

» فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تزيلها ... فرأيتها وقد أعد لكل نجم منها ساعة نزوله سياج خاص يأوي إليه سابقا أو لاحقا ، وحدد له مكان معين داخل السياج متقدما أو متأخرا ، إذن لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري أن هناك **خطة تفصيلية شاملة قد رسمت** فيها مواقع النجوم كلها من قبل نزولها ، بل من قبل أن تخلق أسبابها . وأن هذه الخطة التي رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بآكد العزم والتصميم : فما من نجم وضع في سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها ، وما من نجم جعل في مكان ما من السورة آخراً ثم وجد عنه أبدا الدهر مصرفا ومحولا ..« [30] .

ويقول رحمه الله :

» أقبل بنفسك على تدبر هذا النظم لتعرف بأي يد وضع بنيانه ، وعلى أي عين صنع نظامه ... ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة ، حتى يحدثك التاريخ أن كلها أو جلها قد نزلت نجوما. أو لتقولن إنها إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق ، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع ، كمثل بنيان كان قائما على قواعده ، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ، ثم فرق أنقاضا ، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم ، وإذا البينان قد عاد مرصوصا يشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة « [31] .

ثم قال رحمه الله :

» ولماذا نقول إن هذه المعاني تنتسق كما تنتسق الحجرات في البنيان ؟ لا ، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان ، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما ، كما يلتقي العظمان عند

---

[30] - المرجع السابق ، 150-151.

[31] - المرجع السابق ، 154-155.

المفصل ، ومن فوقها تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ... كما يأخذ الجسم قواما واحدا ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد ، مع اختلاف وظائفه العضوية « [32].

وتقول د. منى أبو الفضل :

» ومن ثم فإن القرآن ليس تجميعا لنصوص محفوظة ، وإنما هو جمع آيات التحمت عبر لحظات متدافعة في مواقع متجددة وبأغراض توجيهية معلومة، سواء كان هذا التوجيه بالإعمال أو بالإبطال ،بالدعم والتثبيت أو بالتقويم والتصويب . وإذا ما انقضت المناسبات والملابسات ، بقيت هذه الآيات لا بمثابة الذكرى التي تسجل واقعة انقضت ، وليس كمحفظة تاريخية أو بيان توثيقي ، وإنما بقيت هذه الآيات تحتفظ بكامل فعاليتها التوجيهية النافذة عبر الزمان والمكان ، بالنسبة لكل موقف إنساني ، اجتماعيا كان أو تاريخيا ، يحتوي على عناصر الموقف الأساسي الذي كان سببا في النزول . ولأن المواقف التي تتخلل حياة الأفراد والجماعات والأمم لا تخلو من عناصر تلازمها ملازمة الفطرة للإنسان، فلا عجب أن ظل البيان القرآني ينبض حيوية وتفعيلا بوصفه تنزيلا من لدن عليم خبير ، خالق الإنسان ، معلمه البيان ، مدبر ومهيء الأسباب « [33] .

---

[32] - المرجع السابق ، 155 ، وانظر كتابه : مدخل إلى القرآن الكريم ، 120-1222 ، دار القلم الكويت ، 1404هـ –1984م.

[33] - منى أبو الفضل ، نحو منهاجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات ، ص 21-22.

أهمية بنائية القرآن المجيد في المجال المعرفي

إن القرآن المجيد في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي ، وتوحد بين زوايا إدراكه ، مما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يمكنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين إلى صيرورته سلما لله رب العالمين[34] فيطفق في السير سوياً على صراط مستقيم[35] وقد تنبهت د. منى أبو الفضل بلوذعية إلى هذه الحقيقة فقالت في معرض حديثها عن حيوية الخطاب القرآني :

« إن هذه الحيوية إنما ترجع في جانب منها إلى الإعجاز البياني في الأسلوب القرآني في الخطاب؛ والذي يجمع بين خطاب النفس الإنسانية في أبعادها الفطرية والوجدانية وخطاب العقل في أبعاده المنطقية والبرهانية . ومناط الإعجاز هنا هو في تجاوزه للقوانين النفسية التي بمقتضاها نرى العقل والعاطفة لا يعملان إلا بالتبادل ، وبنسب عكسية نحو تضافر وائتلاف بينهما ... والدلالية العملية لذلك في مجال بحثنا هو أن الأصول المنهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي لا بد أن تعتبر بهذا المعنى في أسلوب البيان القرآني ، فإذا كان هناك موضوع للتمييز بين تنوع جوانب ومصادر السلوك الإنساني والسلوكيات في المجتمع ، فإن علينا أن نتعامل مع الإنسان في وحدته المتضمنة لأبعاده المتنوعة ، وأن تنطلق مناهجنا في التعامل مع الظواهر الاجتماعية من تلك القاعدة التي توفر لها أوسع قدر من التكامل الممكن وسعة الأفق . والوجه الآخر لهذه الملاحظة أن علينا أن نتعامل بكثير من التحفظ مع المناهج المتداولة في مجال التخصص ، ليس فقط للاعتبار الجوهري الذي يحكم منحاها جميعا ، والذي ينشأ عن المنطلقات الفلسفية المعرفية التي تقوم عليها ، مما يتنافى مع الأصول

---

34 - انظر الزمر ، 22-28.

35 - ﴿ أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم ﴾ .سورة الملك:22.

المعرفية الإسلامية ، ولكن لأنها لا محالة واقعة بين مثالب الإفراط والتفريط ، على النحو الذي من شأنه أن ينعكس في كل من طبيعة ونتيجة الدراسات التي ترتكز إليها . وأول ما نستفيده من التعامل مع أسلوب البيان القرآني هو ضرورة اتساق الأصول المعرفية ومحتوى الرسالة مع الأصول المنهجية أو طرق الاقتراب والتناول لها. بل إننا نرى أنه من شأن تمايز الخطاب القرآني على هذا النحو الذي يؤلف فيه بين متنافرات أن يوجد نسقا إسلاميا خاصا في المعرفة ، قوامه الوحدة والاتساق ، وإمكانات التأليف بين المتباينات . وهذا على خلاف النسق السائد في المجال المعرفي المعاصر والذي هو وليد وميراث التطور التاريخي الخاص بالحضارة الأوربية في أبعادها الفكرية والروحية والواقعية«[36] .

بين علوم التسخير وعلوم التيسير

أولا : علوم التسخير وعلاقتها بالوحدة البنائية للكون :

1) مفهوم التسخير :

قال الزبيدي: » والتسخير: التذليل، وسفن سواخر موخر من ذلك. وكل ما ذل وانقاد أو تهيأ لك على ما تريد ، فقد سخّر لك . وسخره تسخيرا : ذله وكلفه عملا بلا أجرة ... قال الله تعالى: وسخر لكم الشمس والقمر [إبراهيم، 33] وقوله تعالى : والنجوم مسخرات بأمره [الأعراف ، 54] قال الأزهري : جاريا جاريهن«[37]
وتسخير الخليقة للإنسان عام .. يقول تعالى : وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه
[الجاثية ، 13] وهو تسخير مؤقت : ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين [البقرة ، 35] إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين [يس ، 43] فالوحي الذي تتسخر بمقتضاه الكائنات للإنسان وحي مؤقت سوف ينسخ بوحي آخر،وإلى ذلك الإشارة في سورة الزلزلة ، إذ يقول تعالى : إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض

---

[36] - المرجع السابق ، ص: 20.
[37] - تاج العروس : 6/506.

أثقالها . وقال الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها [الزلزلة ، 1-5] قال القرطبي : » أوحى لها : أمرها ،قال مجاهد ... قيل : المعنى تكون الزلزلة . «[38] قال محمد الطاهر بن عاشور في "التحرير والتنوير": » وأطلق الوحي على أمر التكوين ، أي : أوجد فيها أسباب إخراج أثقالها ، فكأنه أسر إليها بكلام « . وهو قوله تعالى من سورة الانشقاق : وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحقت [الانشقاق ، 3-5] قال القرطبي : » ألقت ما فيها وتخلت « ألقت ما استودعت وتخلت عما استحفظت . فهو وحي جديد بالتخلي نسخ الوحي السابق بالتسخر : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار [إبراهيم ، 50]، قال القرطبي بعد أن ساق جملة من الأحاديث التي تذكر تبدل الأرض والسماوات : » فهذه الأحاديث تنص على أن السماوات والأرض تبدل « [39] قال محمد الطاهر بن عاشور: «وتبديل الأرض والسماوات يوم القيامة: إما بتغيير الأوصاف التي كانت لها وإبطال النظم المعروفة فيها في الحياة الدنيا ، وإما بإزالتها ووجدان أرض وسماوات أخرى في العالم الأخروي . وحاصل المعنى: **استبدال عالم جديد بالعالم الموجود** « [40]. وهذا هو ما سوف نصطلح عليه **بالمؤقتية** فيما سوف يلي من هذا البحث.

وثمة خصيصة أخرى تعتبر من مقتضيات التسخير الأساس ، وهي خصيصة المواءمة بين الإنسان وبين الكون فـ «هناك تناسق ذاتي بين مفردات الخليقة والانتفاع الإنساني، فالحاجات الإنسانية جزء من بناء الخليقة ، ومفردات الخليقة مصممة بقصد أن تخدم تلك الحاجات. فكل مكونات الطبيعة ذات استعداد لقبول تأثير الإنسان فيها ، ولتحمل التغيير طبقا لتصرفه والتحول إلى

---

[38] - الجامع لأحكام القرآن ، 20/102.
[39] - الجامع لأحكام القرآن ، 9/252.
[40] -التحرير والتنوير ، 13/ 252-253.

أي شكل يرغب فيه « [41] . وهذا هو المقصود بعبارة " **لكم** " في آيات التسخير في القرآن المجيد[42] . وقد ترد عبارة (لهم) كما في سورة (يس، 41) وهو المقصود أيضا من عبارة ذلل في مثل قوله تعالى : أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أ فلا يشكرون [يس ، 70-72] وقوله تعالى : هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور [الملك ، 15] وقد جمع الله بين المؤقتية والمواءمة في مثل قوله تعالى : وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ، وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة ومتاعا إلى حين [يس ، 36-43] .

ب) علاقة علوم التخسير بالوحدة البنائية للكون :

إن الذي يحول دون الإنسان وتسخير الكون هو التعضية والتفرقة بين مظاهره وعدم الاستبصار ببنائيته ، فمن خلال الاتساق يتمكن الإنسان من إدراك استمرارية النظام الكوني القائم على قوانين وسنن تؤدي وظيفتها فيه وتسري سريانا لا يتخلف[43] ولا يقصر عن مظهره ، ما علم منها الإنسان وما لم يعلم ، وبالطرائق التي أحاطت بها معرفته ، أو تلك التي لم تبلغها بعد[44] . إن الكون

---

[41] - د. إسماعيل الفاروقي ، أسلمة المعرفة ، 69.

[42] - إبراهيم ، 32-33 / الحج ، 65/ الجاثية ، 13/الحج ، 37.

[43] - فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا [فاطر، 43]و لا تبديل لخلق الله [الروم ، 29].

[44] - إن التبسيط الفلسفي للتوحيد – كما التعضية له والتفريق – يمكن أن يكون عائقا من عوائق التقدم في العلم والقدرة على التسخير (انظر غاستون باشلار ، تكوين العقل العلمي ، 15) . إذ يوقع هذا التبسيط في

نظام هادف نابض بالحياة مفعم بالمعنى ، حيث إن كل أجزائه تكوّن« بناء عضويا تتفاعل أجزاؤه وأعضاؤه بطرق لا يزال البشر في بداية الطريق إلى اكتشافها بفضل العلم ، لكن في أجزاء محدودة جدا من الطبيعة ، أما المسلمون فهم يعلمون أن الخليقة كيان عضوي ، وأن كل جزء فيها يخدم غاية ما ، حتى ولو كانوا لا يعرفونها . وهذا العلم ثمرة لإيمانهم «[45] . إن الآيات من القرآن التي تفيد بنائية الكون وغائيته وملابسة الحكمة لكل مظاهره ودقائقه آيات كثيرة يتعذر حصرها في مثل هذا المقام، منها قوله تعالى : أأنتم أشد خلقا أم السماء

الحتمية الكزة المانعة من خلخلة ما يكتشف في أفق تجاوزه نحو ما هو أنفع للإنسان . (انظر ما كتبه غاستون باشلار في كتاب : الفكر العلمي الجديد ، حول الحتمية واللاحتمية ، 103) وقد أعجبني بهذا الصدد كلام نفيس للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي يخلخل فيه الاستكانة إلى الحتمية الكزة التي تنجم عن التسطيح لمفاهيم جوهرية ، مثل : **وحدة عمل الخالق ، والوحدة المنطقية ، ووحدة مخطط الطبيعة** ، وهي مفاهيم سائدة – للأسف – بتسطيح كبير في كثير من المصنفات التي تنسب إلى الفكر الإسلامي . يقول رحمه الله : " فالله سبحانه وتعالى قد يجعل سببا ما يؤدي إلى نتيجة مباشرة ، لكنه قد يعمل سببا ما عن طريق أسباب أخرى ، فيكون ما يظهر لنا على أنه سلسلة حتمية من الأسباب لا يعدو أن يكون سببا إلهيا تماما كالسبب المفرد ... إذن وكما اكتشف الغزالي وهيوم – على ما بينهما من خلاف في المبادئ – فإن ارتباط السبب بالمسبب ليس أمرا حتميا . فالواقع أن ما نسميه بالسببية ليس إلا عملية تتابع وتكرار ، تقودنا إلى الاعتقاد بأن سببا ما تتبعه عادة نتيجة ما . وليس لهذه العقيدة من أساس تقوم عليه سوى كرم الكائن الأعلى . فالله سبحانه وتعالى لا يخدع أو يضلل ، إنه خالق كريم نظم الكون ليجعله صالحا لأن نحيا فيه ولأن نفهمه ، وكذلك كي نتمكن من ممارسة الخيارات الخلقية أمامنا ، ونبرهن – من خلال الأعمال – على ما لنا من قيمة أخلاقية ... وعليه ، فإن لكل شيء موجود علاقة السبب أو النتيجة بكل شيء آخر ، فضلا عن كونها علاقة ذات نهاية أو هي وسيلة لغاية معينة . أليست غاية كل العلاقات على اختلاف ضروبها تنتهي إلى الله سبحانه ؟ إن شبكة العلاقات غير منتهية ، وهي بالتأكيد مجال مفتوح أمام البشر للبحث والمعرفة والإعجاب ، لكن مادامت مطلقة فلن يستطيع البشر أن يعرفوا سوى القليل من العلاقات على قدر الضوء الضئيل الذي معهم ... لكن واجبهم .. أن يجتهدوا دائما في البحث عنها واكتشافها ، واكتشاف تلك العلاقات وتقنينها يعني وضع الأسس لمعرفة السنن الثابتة التي وضعها الله سبحانه وتعالى ولتقديرها قدرها . [إسماعيل راجي الفاروقي ، أسلمة المعرفة ، 64-67] .

[45] - أسلمة المعرفة ، 67.

بناها . رفعها سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها. متاعا لكم ولأنعامكم [النازعات ، 27-33] قال الزبيدي : » والسمك: السقف ، أو هو من أعلى البيت إلى أسفله « [46]. وتلفت الآيات العديدة التي فيها خلق السماوات والأرض بالحق النظر إلى كون البناء بناء تسري في جنباته الحكمة والقصد والغائية . قال برهان الدين البقاعي ، في معرض حديثه عن قوله تعالى : ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق [إبراهيم ،22] : » بالأمر الثابت من وضع كل شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة « [47] .

إن هذه الوحدة البنائية في الكون هي التي مكنت العقل البشري – بعد اكتشافها – من تأسيس كل العلوم التي يمكن أن نصطلح على تسميتها " علوم التسخير" ، ثم تطويرها إلى حد بلورة المنهجية التوحيدية بين التخصصات ، والتي أعطت الفكر العلمي الجديد مددا قويا ، وفتحت أمامه إمكانات في غاية الكثرة والتنوع والنفع .

ثانيا : علوم التيسير وعلاقتها بالوحدة البنائية للكون

أ) مفهوم التيسير :

اليسر بالفتح ، ويحرك : اللين والانقياد ... ويسره : لاينه . واليَسر محركة : السهل اللين الانقياد ... واليسر بالضم : السهولة والغنى ، واليسر ضد العسر ، واستيسر الشيءُ : تسهّل ، ويسره: سهّله... الغنم : كثرت نسلها ولبنها [48].

وقد وردت لفظة التيسير مقترنة بكتاب الله تعالى في ستة مواقع من القرآن المجيد : منها أربعة في سورة القمر بلفظ واحد هو قوله تعالى: ولقد يسرنا القرآن

---

[46] - تاج العروس ، 13/585-586.
[47] - نظم الدرر ، 10/402.
[48] - تاج العروس ، 7/6633-638.

للذكر فهل من مذكر [القمر ، 17 ،22، 32 ، 40] ومنها قوله تعالى في سورة مريم : فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا [مريم ، 97] ثم قوله تعالى : فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ، فارتقب إنهم مرتقبون [الدخان ، 58-59] ولفظ التيسير في هذه الآيات جميعها يفيد تسهيل القرآن للذكر من لدن الله الذي يفضي إلى لين وانقياد ذاتي فيه لمن أراد الذكرى .

ب) علاقة علوم التيسير بالوحدة البنائية للقرآن :

في مقابل التسخير للكون نجد تيسير القرآن ، وفي مقابل التفكر في الكون المنتج للمعرفة فيه الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا [آل عمران ، 191] نجد التدبر في القرآن المنتج للاهتداء به : كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب [ص، 29] وكما أن علوم التسخير تنتج عن الوعي ببنائية الكون وخضوعه لسنن قابلة للتعقل والإدراك بمقتضى المواءمة التي بين الكون والإنسان ، وأنها علوم تتطور بفعل اتباع المنهجية الآياتية ، وتفعيل القدرة على تسمية الأسماء – كما سيأتي بيانه حين يأتي الكلام عن المنهجية الآياتية – فإن علوم التيسير تنتج عن الوعي ببنائية القرآن المجيد وتضمنه لسنن قابلة للتعقل والإدراك من لدن الإنسان ، بمقتضى المواءمة التي جعلها الله بين الإنسان والقرآن ، يقول الشاطبي رحمه الله :

« فمن حيث كان القرآن معجزا ، أفحم الفصحاء ، وأعجز البلغاء ، أن يأتوا بمثله ، فذلك لا يخرجه عن كونه عربيا ، جاريا على أساليب كلام العرب ، ميسرا للفهم فيه عن الله ... لكن بشرط الدربة في اللسان العربي ، إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول معانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يطاق ، وذلك مرفوع عن الأمة ، وهذا من جملة الوجوه الإعجازية فيه ، إذ من العجب إيراد كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب ،

مفهوم معقول ، ثم لا يقدر البشر على الإتيان بسورة من مثله، ولو اجتمعوا وكان بعضهم لبعض ظهيراـ فهم أقدر ما كانوا على معارضة الأمثال ، أعجز ما كانوا عن معارضته . وقد قال الله تعالى : ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر [القمر ، 17] وقال : فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا [مريم ، 97] وقال : قرآنا عربيا لقوم يعلمون {فصلت،3} وقال : بلسان عربي مبين وعلى أي وجه فرض إعجازه فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه : كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم ، وكذلك ما كان مثله ، وهو ظاهر «[49].

غير أن علوم التسخير – وللنفع السريع الظاهر الذي ينتج عنها – قد شهدت وتشهد تطورات في غاية الأهمية والسرعة ، في حين أن علوم التيسير قد أصابتها صنوف من الانتكاس ، بسبب عوامل متعددة أهمها التقليد وانعدام الرؤية وانقطاع الطريق ، بفعل الحضور الجبار الكابت للاجتهادات للجهود الموسوعية الذي بذلها السابقون ، إلى درجة رواج مقولات محبطة في أمتنا ، من مثلـ : (ليس في الإمكان أبدع مما كان!) وغيرها . وبما أن المقام هنا لا يستوجب أكثر من تأكيد العلاقة بين البنائية والتيسير ، فيكفي من القلادة ما أحاط بالعنق . والله المستعان .

ـــــــــانتهى.

---

[49] - الموافقات ، 3/346-347.

السنن الاجتماعية في القرآن الكريم

بقلم الدكتور محمد السيسي
رئيس شعبة الدراسات الإسلامية/كلية الآداب مكناس

تعرض هذه الدراسة (السنن الاجتماعية) كما وردت في القرآن الكريم، بعد استقراءٍ تام لكتاب الله تعالى، ثم استخلاص المفهوم القرآني لها، في سياق دراسةٍ عامةٍ لمصطلح (السنة). ليعرض الباحث بعد ذلك أصناف تلك السنن في صياغة تقعيدية، قابلةٍ للإعمال في مجال الإصلاح الاجتماعي. وعليه فقد تم عرض البحث عبر محورين رئيسين. وذلك كما يلي:

المحور الأول: مفهوم السنن الاجتماعية:

أولا- مفهوم السنة في اللغة والاصطلاح العام:

العام: معنى السنة: لفظ "السنة" التي جمعها سنن، تعددت وجوه استعماله في اللغة، ومن ذلك أنها الطريقة والسيرة والمنهج و الشريعة والبيان القويم والوضع والاتباع والعادة والاقتداء...، وحسن رعاية الشيء والقيام عليه ([50]).

وبتعدد هذه المعاني وتقاربها في اللغة تعدد مدلول لفظ السنة في الاستعمال الاصطلاحي، واتخذ المفاهيم التي تناسبه في التخصص العلمي المستعمل فيه.

1-فالسنة في اصطلاح المحدثين ما أثر عن النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية ([51])

2-والسنة في اصطلاح الأصوليين ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله أو قرره ([52]).

---

50 - وكذا إذن: الأمة والقوة والشدة وفعل الشيء للاقتداء به، انظر معجم مقاييس اللغة، وتاج العروس، ولسان العرب مادة/ سنن

51 - انظر الموافقات في أصول الشريعة 2/3 لأبي إسحاق الشاطبي شرح وتخريج: محمد عبد الله دراز / دار الكتب العلمية، بيروت د.ت. ويطلق أيضا لفظ السنة على ما عمل عليه الصحابة.

52 - قال صاحب فواتح الرحموت السنة ما صدر عن رسول الله غير القرآن من قول وفعل وتقرير" فواتح الرحموت، هامش المستصفى 2/92 دار الفكر، د.ت.

3-والسنة في عرف الفقهاء ما كان في مشروعيته دون الواجب وفوق المندوب، فهي "اسم للطريقة المرضية المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب ([53]).

4-والسنة في عرف الشرع بصفة عامة: الطريقة المشروعة في الدين وهي هنا ضد

البدعة ([54]). والمفهوم هنا ألصق بمجال العقيدة، ومن هنا قال اللغويون: "وسنة الله وأحكامه وأمره ونهيه، وسن الله سنة أي بين طريقا قويما. إذ سنة الله تعالى قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته" ([55]).

والملاحظ أن هذه التسميات الاصطلاحية قد اكتسبت مدلولها من أمرين اثنين:

الأول: باعتبار المعنى اللغوي كما حددته المعاجم اللغوية.

الثاني: علاقة المعنى المأخوذ (المدلول الخاص) بموضوع العلم ومجاله التخصصي.

على أن هذا الاكتساب لم يتم إلا بعد نشأة العلم واستوائه على سوقه يعجب أهله وطالبه.

وحيث إن مفهوم السنة الاجتماعية في التصور الإسلامي مرتبط أساسا بالقرآن الكريم، هو في الوقت نفسه أساس بناء التصورات والمفاهيم العقدية والفكرية عند المسلمين، فإن اتضاح معنى السنة وتحديد مدلولها يتوقف على تتبع مفهوم السنن في القرآن الكريم.

ثانيا- مفهوم السنن في الاستعمال القرآني:

---

[53] - انظر التعريفات لأبي الحسين الجرجاني، مادة: السنة / الدار التونسية للنشر – تونس 1971م /وانظر الكليات للكفوي ومعجم الفقهاء وضع رواس قلعة حي، وحامد صادق قنيني. ط. الثانية 1408هـ / دار النفائش، بيروت، مادة: السنة.

[54] - انظر الاعتصام 1/18 لأبي إسحاق الشاطبي، تعريف محمد رشيد رضا / المكتبة التجارية بمصر د.ت، وانظر الموافقات 2/3 ومعجم الفقهاء مادة: السنة.

[55] - انظر اللسان وتاج العروس مادة: سنن، والقاموس المحيط، فصل السين باب النون.

لقد ذكر لفظ "سنة" في القرآن بصيغة المفرد والجمع في عشر سور من سور القرآن الكريم ([56]).

ست عشرة مرة بالجمع (سنن) بالإضافة إلى الذين من قبلنا مرة واحدة، باعتبارنا أمة وأخرى مقطوعة عن الإضافة، والباقي كله مفردا مضافا إما إلى اسم الجلالة الظاهر وهو الكثير وإما إلى المضمر وهو القليل، و إلى السابقين الأولين من الأنبياء والمرسلين والأمم السالفة وهو أقل ([57])، لمناسبات متعددة ومتنوعة تبعا للغرض القرآني في السياق العام الذي ورد عقبه اللفظ في السورة.

ومع تعدد المناسبات وتنوعها فإن الغرض القرآني منها ومن معنى السنة في كل الآيات التي ورد فيها يقصد به معنى واحد هو: الاعتبار والاستبصار لما حكم الله به وجعله ناموسا في خلقه، يتكرر أسبابه وتوافر شروط إنفاذه.

ولتجلية الأمر وتوضيحه نمثل لكل تركيب بمثال:

- المثال الأول: لفظ "سنة" مجردا عن الإضافة في قوله تعالى: (قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ([58]) قال الطبري في تفسير معنى "سنة" وما تدل عليه: "مضت وسلفت مني فيمن كان من سالف الأمم قبلكم سنن، يعني مَثُلات، سير بها فيهم، وفيمن كذبوا بأنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجلته، لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا

---

[56] - هي آل عمران 137 – النساء 26 – الأنفال 38 – الحجر 13- الإسراء 77- الكهف 54- الأحزاب 38، 62 – فاطر 43، 44 – غافر 84 – الفتح 23.

[57] - يقول الطاهر بن عاشور: "إضافة سنة إلى من قد أرسلنا لأدنى ملابسة، والإضافة إلى ضمير الجلالة هو الإضافة الحقيقة والتقدير: سننا ذلك لمن قبلك من رسلنا أي لأجلهم وإضافتها إلى الأولين باعتبار تعلقها بهم وإنما هي سنة الله فيهم، لأنها المقصودة، انظر التحرير والتنوير 41/25/و 15/180 في تفسير آية الإسراء 77 وآية الحجر 13. وانظر أيضا تفسير الكشاف 2/286.

[58] - آل عمران 37.

وعبرا" ([59]). وقال الزمخشري: "يريد ما سنة الله في الأمم المكذبين من وقائعه" ([60]). وفي تفسير ابن كثير: "أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين من قبلكم من أتباع الأنبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين" ([61]).

- المثال الثاني: لفظ "سنة" مضافا إلى اسم الجلالة كقوله تعالى: (سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا) ([62]). فمما جاء في بيان معنى السنة في هذا السياق "سن الله سنة علبة أنبيائه سنة، وهي قوله تعالى: (... لأغلبن أنا ورسولي) ([63]).

وهي طريقته وعادته التي قد مضت في الأمم من نصر أوليائه على أعدائه (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أي لن تجد لها تغييرا، بل هي مستمرة ثابتة" ([64]). جعلها الله عادة له حيث ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله ([65]).

- المثال الثالث: لفظ "سنة" مضافا إلى السابقين من الأمم والمرسلين، ومنه قوله تعالى تعقيبا على أحداث موقعة بدر بالتنصيص على مجموعة من الحقائق الواقعية والنواميس الربانية (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) ([66]). فمما جاء في تفسير عبارة (فقد مضت سنة الأولين) أنها "عبارة تجمع الوعيد والتهديد والتمثيل

---

[59] - جامع البيان 4/99، ويورد مع هذا التفسير من قال من السلف بذلك ومنهم: الحسن، ومجاهد وقتادة، وابن إسحاق.

[60] - تفسير الكشاف 1/417، تأليف محمود بن عمر الزمخشري، تصحيح مصطفى حسن احمد / دار الكتاب العربي 1406 هـ/ بيروت.

[61] - تفسير القرآن العظيم 1/409 لأبي الفداء إسماعيل بن كثير. ط. الأولى 1400 هـ/ دار الفكر بيروت.

[62] - الفتح 23.

[63] - المجادلة، 20.

[64] - فتح القدير 5/53: محمد بن علي الشوكاني، ط الثانية 1383 هـ/ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

[65] - انظر تفسير الظلال 7/507.

[66] - الأنفال 38.

بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب اله ([67]). ذلك أن السنة هي "العادة المألوفة والسيرة... وهذا الخبر تعريض بالوعيد بأنهم سيلقون ما لقيه الأولون" ([68]).

ومما تجدر الإشارة إليه أن تفاسير العصر الحديث قد زادت مفهوم السنة في القرآن الكريم تحديدا وبيانا بما استفادته من العلوم الإنسانية في عصرها وبخاصة علم الاجتماع" حيث نجد التحرير والتنوير يعبر عن تفسير قوله تعالى: (قد خلت من قبلكم سنن) ([69]) بقوله "ابتدأت هذه المقدمة" ([70]) بحقيقة تاريخية، وهي الاعتبار بأحوال الأمم الماضية... والمعنى قد مضت من قبلكم الأحوال من الأمم، جارية على طريقة واحدة هي عادة الله في الخلق، وفي القرآن إطلاق السنة على هذا المعنى كثيرا" ([71]).

وأما تفسير المنار فقد كان أكثر التفاسير الحديثة تحديدا للفظ السنة في اتجاه مدلوله الاجتماعي، إذ يقول في معناها في سياق آية آل عمران 137 "أي أن أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل، وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة... قد جرى على طريقة قويمة، وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام" ([72]).

والجدير بالذكر هنا هو انه لأول مرة في تاريخ التفسير –حسب علمي- توصف السنن بأنها قواعد ثابتة وكونها مما يقتضيه النظام العام للمجتمعات. و الذي يؤخذ

---

[67] - الجامع لأحكام القرآن 7/404، لأبي عبد الله القرطبي . ط. الثانية 1386 هـ / دار القلم، بيروت، ونفس العبارة نقلها فتح القدير 2/380 في تفسير الآية.

[68] - التحرير والتنوير 9/346.

[69] - آل عمران 137.

[70] - يقصد بالمقدمة البشارة في قوله تعالى: (وأنتم الأعلون إن كنتم مومنين) والتسلية في قوله تعالى: (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) آل عمران 139-140.

[71] - التحرير والتنوير 4/95 وقد أصل للمعنى اللغوي بقوله "والسنة جمع سنة وهي السيرة من العمل والخلق الذي يلازم المرء صدور العمل على مثالها" 4/96.

[72] - تفسير المنار 4/140، وانظر تفسير الظلال 2/82 و 3/854.

من أقوال المفسرين في بيانهم لمفهوم لفظة "السنة" في القرآن الكريم أن السننية القرآنية تربي المخاطب وتلفت نظره إلى أمر الله وتقديره في خلقه، أخذا من معناها اللغوي، واتكاء على موقعها في السياق الذي سيقت له وفي الذكر الحكيم، وذلك من حيث:

1-أنه حكمه الذي لا يتخلف ولا يتبدل.

2-أنه جرى ويجري على جميع خلقه دون استثناء ولا محاباة.

3-أنه مرتبط بوجود الأسباب وحضور الشروط وانتفاء الموانع.

4-أنه منصوص عليه قصد الاعتبار والاستبصار اجتنابا للمثلات. ([73]).

وهذه الحيثيات جاءت من جهة أخرى عند المفسرين في إطار وصفي وبياني لمعنى السنة ولأثرها، وللكيفية التي تتحقق بها. بيان يطبعه التداخل والترادف والتشابه، وينتج لنا أيضا تركيب تعريف للسنة في القرآن الكريم مؤداه: "أن السنة هي النواميس والقوانين المطردة التي تحكم نظام الكون بما فيه الإنسان، وفق إرادة الله في خلقه" وهي بتعبير آخر: مشيئة الله ونفاذها في هذا العالم وفق قواعد حكيمة وطرائق قويمة، متجددة بتجدد أسبابها، ملازمة للأفعال التي توجب وقوعها، ثابتة لا تتغير، بتقدير قدره الله وشرطه على خلقه، إنها وعد الله وعادته في الخلق، ذكرها الله سبحانه في كتابه الخاتم في إطار القياس التمثيلي بشواهد التاريخ، وأحوال الأمم، وصيرورة المجتمعات ([74]).

ثالثا- مفهوم السنن الاجتماعية:

إن مصطلح السنن في المجال الذي نحن بصدده قد أخذ مفهومه واكتسب معناه الاصطلاحي بنفس المنهج الذي تخلق عليه في مجال العلوم الإسلامية المتخصصة،

---

[73] - المثلات جمع مثلة، وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا تمثل به العقوبات، انظر التحرير والتنوير 13/92.

[74] - انظر تفسير الكشاف 4/184، وفتح القدير 2/308، و4/785. وتفسير المنار 4/141. والتحرير والتنوير 4/95، 24/222.

بحيث إن ظهوره هو أيضا ارتبط بظهور علم الاجتماع في العالم الإسلامي، وبالتحديد مع مدرسة المنار في التفسير، ومع جذوره الفكرية في مجلة العروة الوثقى مطلع القرن الرابع عشر الهجري وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي ([75]). واعتمادا على المعنى اللغوي والمعنى الشرعي الذي تتبوأه لفظة السنن في السياق القرآني، يمكننا الخلوص إلى القول –في يسر- بأن السنن هي القوانين التي تحكم نظام العالم وفق إرادة الله الخالق باطراد وثبات، تأسيسا على أن كلمة "سنة" تعني مما تعني القوانين المطردة التي لا تتخلف إلا في قضايا السنن الخارقة (المعجزات)، وإن كان هذا الاطراد في الحياة البشرية لا يرى واضحا كما هو عليه الأمر في قوانين المادة ([76]).

وإذا كان القرآن قد أثبت أن للكون المادي الطبيعي قوانين وسننا تحكمه، يمكن تسميتها بالسنن التسخيرية ([77]) أو السنن الكونية. فإن ثمة حقيقة أخرى تبرز واضحة فيه أيضا، ذلك "أن مساحة كبيرة في سوره وآياته قد خصصت لمعالجة حالات الأمم السابقة بأبعاد واتجاهات مختلفة... لتجارب عدد من الجماعات البشرية. تتميز بالتركيز والكثافة للسنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات البشرية عبر الزمان والمكان، مرورا بمواقف الإنسان المتغيرة... وتبلغ هذه المسألة حدا من الاتساع في القرآن، بحيث إن حل سوره لا تكاد تخلو من عرض

---

[75] - إن قارئ تفسير المنار يلاحظ أن السنن الاجتماعية تحتل مكانا ملحوظا وعناية خاصة في تفسير الآيات الكونية والاجتماعية والتاريخية والنفسية إلى حد يمكننا القول معه إنها جانب في التفسير يستحق الاستقلال بالدرس والبحث نظرا لما يعطيه التيار الاجتماعي فيه من كشف لقواعد الاجتماع وسنن الله في الخلق ووصف للواقع والبحث عن مكوناته، منطلقا في كل ذلك من الهداية القرآنية وثقافة العصر السائدة. لمزيد تفصيل انظر اتجاهات التجديد في التفسير في مصر 110-111.

[76] - انظر كيف نتعامل مع القرآن 49.

[77]- كقوله تعالى: (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) يسن 36-37-38-39.

لواقعة تاريخية أو إشارة لحدث ما أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ" ([78]). بل إن ذكر السنن والتنصيص عليها في القرآن الكريم لم يأت إلا عقب سرد تجارب الأمم السالفة والتعقيب عليها بما يناسب تلك التجارب.

ولأهمية هذه السنن في حياة الإنسان –باعتباره سيد الكون والخليفة فيه- نجد القرآن يشد أنظار المخاطبين وعقولهم إلى النظر والاعتبار والتبصر في ملكوت السماوات و الأرض ([79])، والاعتبار بأحوال المجتمعات الغابرة والكشف عن أسرار هذا الكون العجيب وقوانينه التي يسير وفقها، وطرق هذه القوانين في الأنفس والآفاق.

وتصل عناية القرآن بهذه القضية إلى حد النكير على أولئك الذين لن يستعملوا وسائلهم المعرفية الخلقية في معرفة هذه السنن والاستفادة منها في الحياة العملية إصلاحا لأي خلل وضمانا لصواب المستقبل ([80]).

إن النظر في ملكوت السماوات و الأرض يهدينا إلى معرفة السنن الكونية (سنن التسخير) والنظر في تاريخ الأمم وأحوال المجتمعات –رقيا وانحطاطا- يهدينا إلى معرفة السنن الاجتماعية، وكلاهما –تبعا للمنهج القرآني- ذو أهمية في الحياة العملية للإنسان. غير أن التمييز بينهما يغدو أمرا ضروريا تقتضيه منهجية البحث للتفريق بين الظواهر الطبيعية وكيف تحدث، والظواهر الاجتماعية وكيف تعمل... وكل في فلك إفادة الإنسان فاعل ([81]).

---

[78] - النظرية القرآنية في تفسير التاريخ 53.

[79] - من ذلك قوله تعالى: (أو لم ينظروا في ملكوت السموات و الأرض وما خلق الله من شيء...) الأعراف 185. وذلك عقب التنصيص على سنة الاستدراج في قوله تعالى : (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون...) الأعراف 182.

[80] - تأمل على سبيل المثال قوله تعالى: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، فإنها لاتعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) الحج 44.

[81] - السنن الجارية في الكون منها ما يجري على الإنسان ولا يملك من أمرها شيئا كالموت والحياة وعالم الغيب، ومنها ما يستطيع الإفادة منه بتسخيره بما يريد، فينتفع بقدر علمه بها والكشف عن قوانينها كقوانين

فالظواهر الطبيعية أمور تحدث تلقائيا وفق سنن التسخير الربانية ودون أن يكون للإنسان شأن فيها. أما الظواهر الاجتماعية فهي تلك التي تنجم عن تجمع الناس وتفاعلهم مع بعضهم، ودخولهم في شبكة من العلاقات المتبادلة ([82]) وتصرفاتهم متداخلة.

فالفعل البشري بالنسبة للظواهر الاجتماعية هو الذي تتشكل بموجبه حركة التاريخ زمانا ومكانا، مقدمات ونتائج، وأمر البشر هذا وما يترتب عليه من تبعات يجري وفق قواعد ثابتة وسنن مطردة، مؤطرة بمشيئة الله وإرادته في خلقه وعادته فيهم ([83]). عرفتها مؤلفات الفكر الإسلامي المعاصر بأنها القوانين والنواميس الإلهية التي تحكم سير المجتمعات البشرية على وجه العادة والاطراد ([84]).

هذا وإن التصور الإسلامي لسنن الاجتماعية الذي يمكن أخذه من القرآن الكريم ومن توظيف معنى السنة لغويا هو: كونها نواميس تحكم نظام الاجتماع الإنساني والعمران البشري على وجه الاطراد والثبات والشمول. وبهذا المفهوم عرف المعاصرون السنن الاجتماعية في

الجاذبية (سنن كونية) وعلم سير الأمم علوا وانحطاطا وسنن تغيير المجتمعات والأفراد (سنن اجتماعية) ومنها ما لا يستفيد منه لغفلته وتعطيله لأجهزة العلم لديه حينا من الدهر...

[82] - للتفصيل انظر المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع 89.

[83] - يقول رشيد رضا في تفسير قوله تعالى (قل إن الأمر كله لله) آل عمران 54 تحرير الكلام في مسألة المشيئة والعمل والقدر أنه تعالى يبين لنا في كتابه ثلاث حقائق:

الأولى: أنه خالق كل شيء وبمشيئته يجري كل شيء.

الثانية: أن خلقه وتدبيره إنما يجري بحسب مشيئته وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة.

الثالثة: إن في جملة سننه في خلقه وقدره في تدبير عباده أن الإنسان خلق ذا علم ومشيئة وقدرة وإرادة فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى أنه خير له بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره... وهو في ذلك ليس معارضا لمشيئة الله بل مشيئته تابعة لمشيئة الله ومظهر من مظاهره تفسير المنار 4/189.

[84] - انظر تفسير المنار 1/11. و الظاهر أن تفسير المنار قد أخذها من أفكار مجلة العروة الوثقى التي عنونت بعض مقالاتها بسنن الله في الأمم وتطبيقاتها على المسلمين، انظر المقالة الثالثة والعاشرة من مقالات العروة الوثقى.

القرآن الكريم بأنها: "القوانين المطردة والثابتة التي تشكل إلى حد كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية وتعين على فهمها" ([85]). ورغم ما وصفت به السنن الاجتماعية من الثبات والاستمرارية، فإنها تتصف أيضا بالنسبية والتغير، لأن الواقع البشري ليس منضبطا كانضباط الكون المادي. ولعل السبب الرئيس في هذا كون الإنسان نفسه غير منضبط السلوك فهو دائم التقلبات وكونه مكلفا مسؤولا في هذه الحياة بموجب نصوص القرآن الكريم، مفطورا على مجموعة من الغرائز والمثيرات تجعله يتقلب تبعا لمجموعة من المثيرات وتبعا لقوته وضعفه في الاستجابة للمسؤولية. ([86]).

ورفعا للحاجة وإتماما للنعمة عرف الخالق إليه نفسه ومهمته في هذه الحياة وسرد عليه تجارب الأمم و المجتمعات مرتبطة "بسنن الله وحكمه، هدى وموعظة. وكأن هذه السنن الاجتماعية بري وإعداد للمجتمعات وتأهيل لها للسير المستقبلي لما قدمته معارف الوحي من نماذج كثيرة لسنن والقوانين الاجتماعية في مسيرة الحياة و الاجتماع الإنساني للاهتداء بها ([87]).

---

[85] - كيف نتعامل مع القرآن 49.

[86] - ومن وصف القرآن لهذه الحالة في الإنسان قوله تعالى: (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) المعارج 19-21، و قوله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا...) الأحزاب 72.

[87] - انظر الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع 11 وللتفصيل انظر:
أ-على "هامش التفسير" 72، وهو يبين قواعد العمران وأصول الاجتماع من خلال أوائل سورة الإسراء.
ب- "في التاريخ الإسلامي" 7، تأليف عماد الدين خليل، وذلك للاستفادة من المنهج الذي حلل به تداول السلطة في العصر الراشدي، ومن الاقتراحات التي قدمها للتثقيف في المؤسسات الأكاديمية تحت عنوان: "اقتراحات في التدريس والمنهج التاريخي".
ج- " التفسير الإسلامي للتاريخ" لنفس المؤلف وخاصة الفصل الثاني والثالث والرابع، حول موضوع "الواقعة التاريخية والمسألة الحضارية وسقوط الدول والحضارات".
د- "المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع" فصل: القواعد المنهجية وأسس الدراسة 307.

المحور الثاني: السنن الاجتماعية: الصياغة والتوظيف:

إن تدبر كتاب الله تعالى وفقه قضاياه وما يدعو إليه يجعلنا ندرك أن موضوعه هو الإنسان وما عليه مدار نجاحه وخسراته ودعوته إلى المنهج السليم والأخذ بيده إلى هذا المنهج ليستقيم عليه كما أمر، فقد وصف القرآن الكريم نفسه بأنه يهدي للتي هي أقوم وأنه هدى ورحمة ومن آيات هدايته: (٠)

1-إعلام الإنسان بأن الله قد بوأه مكان الخلافة في الأرض وسخرها له، وأقدره على استعمارها ومعرفة قوانينها لتسخيرها، قياما بأمر الخلافة.

2-وضع بين يديه المبادئ والقواعد القوية والأسس الفكرية والخلقية للنظام المثالي الممكن التطبيق في الواقع البشري، وما السنن الاجتماعية في القرآن الكريم إلا مظهر من مظاهر تلك القواعد الكلية والمبادئ الأساسية التي تهدي الإنسان إلى التي هي أقوم بقدر العلم بها والكشف عن منهج عملها والعمل على توظيفها في واقعه ومن ثم تسخيرها بحسب ما يتطلبه هذا الواقع، وتلك منهجية قرآنية صرفة تؤخذ اقتباسا من الترتيل الحكيم – قضايا وأساليب- في حديثه عن واقع المجتمعات والأمم –قبل وأثناء ظهور الإسلام- يرصد الأحداث ويحدد الوقائع ويصف الممارسات، ثم يبين شروط النهوض والتمكين ويوضح أسباب الانهيار والانحطاط ([88]).

وإن اهتمام مفسري الاتجاه بأمر المجتمع والسنن التي تحكم صيرورته ليست بدعا في مجال علم التفسير،

هـ- الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي: 349، فصل شروط التكامل الاجتماعي والشروط الخاصة للشخصية.

٠ - (إن العالم كون منظم لا توجد فيه نتيجة بدون سبب) أصول البحث ومناهجه 42.

[88] - يقول رشيد رضا في مقدمة تفسير المنار 1/19 "إن الأحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقها هي أقل ما جاء في القرآن وإن فيه من التهديد ودعوة الأرواح إلى ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة إلى أوج المعرفة وإرشادها إلى طريق الحياة الاجتماعية ما لا يستغني عنه مؤمن وهو أجدر بالدخول في الفقه الحقيقي.

ولا هي من مستجدات هذا العلم في العصر الحديث، لأن القرآن الكريم قد علم الرعيل الأول من المسلمين طبائع الملل وقوانين الاجتماع وحوادث التاريخ ([89])، حيث كان التعامل مع هذه السنن والقوانين بشكل تلقائي ([90]). ومن هذا المعنى قول الإمام علي معلقا على إحدى معاركه "إن هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على باطلهم، وخذلتم بتفرقكم عن حقكم ([91]) ولقد بقي الأمر على هذا الحال إلى أن غابت عن المجتمع الإسلامي سنن التبصر بالعواقب غفلة عن سنن الله في الأنفس والآفاق فدالت دولة الإسلام وذاقت مجتمعاته وبال أمرها فسادا عمرانيا وسقوطا حضاريا لما تركت سنن التحصين والصيانة، التي تحرس موروث سنن البناء والتمكين ([92]). حتى قيض الله لهذه الأمة في العصر الحديث من تنبه إلى الثروة السننية التي يزخر بها القرآن الكريم، و إلى غفلة المسلمين عنها، وشدة حاجتهم إلى تصحيح اعتقادهم في أفعال الله تعالى ومشيئته في خلقه، وأنها تنفذ وفق سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار عليها ظفر بمشيئة الله، ومن تنكبها خسر بما كسبت يداه ([93]).

وإن تأمل السياق التفسيري لموضوع السنن في تفاسير المحدثين يقضي بعرضها اعتبارا لموضوعها

---

[89] - لمزيد من التفصيل انظر تفسير المنار 4/84.

[90] - انظر مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب الأمة 26: أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق 14، تأليف: أحمد محمد كنعان، ط. الأولى 1411 هـ.

[91] - انظر تفسير المنار 4/142، ويقول في موضع آخر إن علماء الصحابة والتابعين وأئمة الأمصار الذين ورثوا الكتاب بالسليقة كانوا يفهمون هذه السنن الإلهية في الخلق ويهتدون بها وإن لم يضعوا لها قواعد علمية وفنية لتفقيه من بعدهم فيها ثم زالت السليقة فصاروا يفسرون القرآن والدين بالقواعد والفنون والمعارف الموروثة من الشعوب التي أسلمت ولم يكن علم الاجتماع قد دونه أحد. لذا لا نرى في تفاسيرهم شيئا من هذه السنن الخاصة بسياسة الأمم بل تنكبوا هداية القرآن فيها فكانت عاقبة أمرهم ما شكوا منه ونحاول تلافيه، تفسير المنار 12/248.

[92] - انظر على مشارف القرن الخامس عشر دراسة السنن الإلهية والمسلم المعاصر 13، تأليف: إبراهيم الوزير، ط. الأولى 1399هـ / دار الشروق – القاهرة.

[93] - تفسير المنار 4/141.

ومجال تحكمها في ثلاث مجالات: من جهة كونها تأسيسا وبناء لواقع جديد، ومن جهة كونها تحصينا لهذا الواقع إذا هو تأسس، ومن جهة كونها تحذيرا للطرف الفاعل في هذا الواقع من مغبة السقوط والانهيار ([94]) تبعا للمقصد الذي تدل عليه السنن بالنص أو الإشارة أو الإرشاد، استنهاضا وتكليفا، أو تصحيحا وتقويما، أو تنبيها وتحذيرا، وذلك بهدف الوصول "بفكر المسلم إلى إدراك هذه السنن من القرآن الكريم والتحقق بأبعادها لتصبح فقها تغييريا، ومناخا فكريا تربويا، يمكن أن تنشأ عليه الأجيال من خلال النظر في القرآن ([95]).

أولا - سنن التأسيس والبناء:

إن أول ما يؤسس ويبني في هذا المضمار هو الجانب التصوري لدى الإنسان المسلم ومن ذلك:

أ- سنة الابتلاء والامتحان، إظهارا لصدق إيمانه وإخلاص عمله.

جاء في تفسير قوله تعالى (ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ([96]).

إن من الناس من يقول آمنا وللإيمان آثار، ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ويعاملهم سبحانه – وهو الحكم العدل- بما يظنون في أنفسهم قبل ان يبتليهم أيهم أحسن عملا، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم، ويعلموا هل هم مؤمنون حقا، أم هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأماني... إن للعقائد الراسخة آثارا تظهر في العزائم والأعمال، تأثيرا في الأفكار والإرادات... وإن للإيمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء، إلا على الذين امتحن

---

[94] - هذا ويمكن تصنيفها بحسب نسبتها إلى مكان عملها إلى: نفسية واجتماعية وتاريخية، كما يمكن تصنيفها إلى: قوانين محركة نحو البناء كالأمر والنهي ونظرية الاستخلاف، وقوانين تحكم المسألة الحضرية (النظم الاجتماعية) وقوانين لو تحكمت وتهيأت الظروف الاجتماعية أدت إلى التخلف الحضاري، كما يمكن تصنيفها إلى تصنيفات أخرى، انظر النظرية القرآنية 20.

[95] - كيف نتعامل مع القرآن 49.

[96] - العنكبوت، 1-2.

الله قلوبهم للتقوى... وإن امتحان الله للمؤمنين سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن إلى أن تنقضي الدنيا" ([97]). وجاء في السياق نفسه في تفسير الآتين: "إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر... فلا يكفي أن يق0ول الناس آمنا، فهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة ويثبتوا عليها... هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت وسنة جارية في ميزان الله سبحانه" ([98]). ومن ثم فإن الطاقة الإيمانية ضرورية لمواجهة هذه التكاليف، ولإظهار طبيعة السنن الإلهية في ارتباط الأسباب بالمسببات قال الله تعالى: (ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لايرجون) ([99]). جاء في تفسيرها "إن الذي يلتزم الدفاع في الحرب تضعف نفسه وتهن عزيمته، والذي يوطن نفسه على المواجهة تعلو همته وتشتد عزيمته... وهذا التوحيد في الإيمان، والوعد من الرحمان هما مدعاة الأمل والرجاء ومنفاة اليأس والقنوط، والرجاء يبعث القوة ويضاعف العزيمة فيدأب صاحبه على عمله بالصبر والثبات، واليأس يميت الهمة ويضعف العزيمة فيغلب على صاحبه الجزع والفتور" ([100]). وهذا من السنن النفسية ذات الأثر النافذ في السلوك الفردي و الاجتماعي المبنية على صدق الإيمان وإخلاص العمل.

ب- سنن التدافع الحضاري:

ويمكن تسميتها سنن تنازع البقاء ([101]): وهي سنة اجتماعية تحكم سائر المجتمعات البشرية وتصطبغ بها كل مظاهر الحياة، الفردية والجماعية الإنسانية والحيوانية وغياب هذا المعنى وأثره الفاعل في النفس البشرية يحدث فيها الاعتقاد بالجبر والإرجاء وتعطيل الطاقات

---

97 - العروة الوثقى 53-54.

98 - تفسير الظلال 6/387.

99 - النساء 103.

100 - تفسير المنار 5/388.

101 - والمصطلح القرآني هو التدافع أخذا من الآية التي سيقت نموذجا لها.

وهذه المعاني أبرزتها تفاسير الفترة انطلاقا من آيات قرآنية كريمة نصت على هذه السنن نصا صريحا، وفي سياق أمثلة عملية من أحداث التاريخ البشري تأكيدا لأهميتها في مثل قوله تعالى: (ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين) ([102]). جاء في تفسير المنار "لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد في الأرض بأهل الصلاح فيها، لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض... حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم فكان من فضل الله على العالمين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين... وقد سمي هذا دفعا – على قراءة الجمهور- باعتبار أنه منه سبحانه إذ كان سنة من سننه في الاجتماع البشري وسماه دفاعا في قراءة نافع ([103]) باعتبار أن كلا من أهل الحق المصلحين، وأهل الباطل المفسدين، يقاوم الأخر ويقاتله" ([104]). وقد تأخذ هذه السنة شكلا آخر في التدافع، حيث يسلط الله الظالمين بعضهم على بعض، فتتاح الفرصة بنمو الخير وازدياد قوة المستضعفين ([105]). فالآية المفسرة قابلت الدفع بالناس عامة ولم تقابله بالمسلمين والكافرين فقط، إظهارا لعموم هذه السنة. وإن من وراء كشف القرآن الكريم عن هذه السنة، وإظهارطبيعة التعارض في المصالح والاتجاهات، فسح المجال: "للطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع فتنفض عنها الكسل والخمول وتستجيش ما فيها من مكنونات مدخورة ([106]). لمقاومة الشر ومدافعة الباطل مهما كانت قوته وسطوة أهله قال

---

102 - البقرة 249.

103 - الإمام البذر أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني إمام في القراءة وفي السنة، توفي بالمدينة 179 هـ، انظر طبقات القراء 1/330.

104 - تفسير المنار 2/491، وقد جاءت الآية تذييلا لقصة طالوت مع جالوت، وقد استخرج منها التفسير أربع عشرة سنة من سنن الاجتماع البشري.

105 - انظر كيف نتعامل مع القرآن 128.

106 - انظر تفسير الظلال 1/296.

الله تعالى: (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد) ([107]). فحاصل معنى النهي عن الغرور في الآية يعني "أن تقلب الذين كفروا في البلاد آمنين معتزين لا ينبغي أن يكون سببا لغرور المؤمن بحالهم، وتوهمه أن هذا شيء يدوم لهم، فإن هذا من بقاء إبقاء الأشياء على ظواهرها من غير بحث عن أسبابها وعللها... ومن اكتنه حالهم الاجتماعي علم أن تقلبهم في البلاد وتمتعهم بالأمن والنعمة فيها ليس قائما على أساس متين وإنما هو من قبيل حركة الاستمرار لمحرك من الباطل سابق. لم يكن له معارض من الحق، فإذا عارضه ما عليه المؤمنون من الحق لا يلبث أن يزول" ([108]). ومن هذا القبيل إظهار حكمة عداوة الأشرار للأخيار المعبر عنها" في عرف علماء الاجتماع البشري بسنة تنازع البقاء بين المتقابلات، التي تفضي للجهاد والتمحيص، و إلى ما يسمونه سنة الانتخاب الطبيعي، أي انتصار الحق وبقاء الأمثل، التي ورد بها المثل في قوله تعالى من سورة الرعد ([109]) (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبد فيذهب جفاء وأماما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) ([110]).

ومن صور سنة تنازع البقاء، التنازع بين رجال المال والأعمال ورجال الإصلاح في حرية الكسب المطلقة مقرونة بحرية الاعتقاد وتقييد الكسب بالحلال، ما جاء في قصة شعيب مع قومه: (قالوا يا شعيب أصلواتك تامرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء)

---

107 - آل عمران 196.

108 - تفسير المنار 4/313 وانظر التحرير والتنوير 4/205.

109 - انظر تفسير المنار 8/6 في تفسير قوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) الأنعام 111 ومعنى هذا جعل أن سنة الله تعالى في الخلق مضت أن يكون الشرير العاتي عدوا للدعاة من الأنبياء ووارثي هدايته.

110 - الرعد، 19، 20.

([111]). وهي مسألة من أهم مسائل الاجتماع البشري ومازال التنازع المالي أعقد مشاكل الاجتماع ([112]).

ولكي يمكث ما ينفع الناس في الأرض ويذهب الزبد جفاء، كان لابد أن تكون سنة أخرى من سنن الاجتماع حاضرة في ذهن المتلقي واضحة في معناها وما ترمي إليه تلك هي سنة التداول وهي سنة عظيمة من سنن الاجتماع أخذا من قوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ([113]) التي جاءت عقب التنصيص على سنن الله في الأمم أثناء ما وقع للمسلمين قفي أحد.

جاء في تفسير هذه الآية "أي أن هذه السنة من تلك السنن، وهي ظاهرة بين الناس... والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس... فهي لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها. أي إذا علمتم أن ذلك سنة فعليكم أن لا تهنوا ولا تضعفوا بما أصابكم لأنكم تعلمون أن الدولة تدول.

والعبارة تومئ إلى شيء مطوي كان معلوما لهم، وهو أن لكل دولة سبب، فكأنه قال: إذا كانت الدولة منوطة بالأعمال التي تفضي إليها، كالاجتماع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من قوة فعليكم ان تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم الإحكام ([114]). فإذا كانت مداولة الأيام سنة من سنن الله في الاجتماع البشري فلا غرو أن تكون الدولة والعاقبة لصاحب الحق، ليعلم الناظر في السنن العامة و الباحث في الحكمة الإلهية أنه لا محاباة في هذه المداومة، وليعلم الذين آمنوا أن الجهاد الاجتماعي الذي يدال به قوم على آخرين به يظهر ويتميز الإيمان الصحيح والقصد السليم ([115]).

---

111 - هود 87.
112 - انظر الوحي المحمدي 137 و تفسير المنار 12/242.
113 - آل عمران 140.
114 - تفسير المنار 4/148
115 - انظر نفس المصدر والصفحة.

ج- سنن التغيير والتحويل: أخذا من قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ([116]). وهذه السنة هي أول خطوة توجه بها التفسير في العصر الحديث نحو المجتمع وكانت هي المحور الذي تدور حوله السنن الاجتماعية الأخرى فيه بالتنصيص على مبدأين كبيرين:

الأول: العمل على التغير والتحول في عالم الأشياء والأفكار بتعبير "مالك بن نبي".

الثاني: أن هذا التحول والتغير يبدأ مما بالنفس.

يقول عزة دروزة في تفسير الآية: "هذه الجملة جديرة بالتنويه لما تحتويه من تقرير لناموس إلهي اجتماعي يتقلب البشر وفاقه بين النعم والنقم والصلاح والفساد وبالتالي لما تحتويه من تلقين جليل مستمر المدى، حيث قصدت تقرير كون النعم والنقم والخيرات والويلات، لا تأتي على الناس عنوة وإنما هي منوطة بسلوكهم وسيرتهم فإذا كانوا متمعنين بالقوة والعزة والنجاح والصلاح فإنما يكون ذلك بسبب ما يقوم عليه سلوكهم من أسس الاستقامة والحق فلا تتبدل حالتهم من الحسن إلى السيئ إلا إذا انحرفوا عن الطريق المستقيم... وإذا كانوا ضعافا يقاسون الويل والذل والفقر والفوضى، فإنما يكون هذا بسبب ما يقوم عليه سلوكهم من انحراف وإهمال وفساد. فلا تتبدل حالهم من السيئ إلى الحسن إلا إذا عدلوا عما هم فيه وساروا في طريق الصلاح والاستقامة. وفي هذا ما هو ظاهر من الاتساق مع حقائق الأشياء. والإطلاق في الجملة يجعل مداها المشروح شاملا لجميع الناس والبيئات والطبقات والملل والنحل والحالات الاجتماعية و الاقتصادية والسياسية ... وفي الآية –كما هو واضح- أن الناس يتحملون مسؤولية كسبهم بقابليتهم لتغيير ما بأنفسهم بإرادتهم" ([117]).

---

[116] - الرعد 12

[117] - التفسير الحديث 7/50 تأليف: محمد عزة دروزة. ط. الأولى 1381 هـ/ دار الكتب العربية القاهرة.

إن قيمة هذا الدرس القرآني في البناء النفسي والإعداد القبلي، يشعر المتلقي للخطاب القرآني بأن الإنسان هو سيد نفسه كما هو سيد هذه الأرض، وعمرانها مرتبط أساسا بمدى استعداده وأهليته، وإن صلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده، من حيث ما بنيت عليه روحه من عقائد وأخلاق توجه سلوكه العملي. ومما يؤكد ذلك ما فسرت به شبيهة الآية السابقة وهي قوله تعالى: (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) ([118]) التي تقرر عدل الله في معاملة العباد، بحيث لا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم، كما تقرر تكريم الله للإنسان، حيث جعل قدره ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنيا على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وأعمالهم وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم... وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانبا من جوانب التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان وعلاقة قدرة الله به في هذه الوجود) ([119]). وهي من جهة أخرى بيان لسنة عظيمة من أعظم سنن الله تعالى في نظام الاجتماع البشري، إذ يبين الله تعالى لكل قوم خطأهم بهذه الآية وبما في معناها، ويثبت لهم أن نعمه تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العوائد و الأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال، غير الله عندئذ ما بأنفسهم وسلبهم نعمته وهذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم وهو كذلك في الأفراد ([120]). فإن الله لا يغير عزا أو ذلة، ولا يغير مكانة او مهابة، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم

---

[118] - الأنفال 54.

[119] - تفسير الظلال 4/37 بتصرف.

[120] - تفسير المنار 10/37-38- وانظر 2/280 من التفسير نفسه.

وواقع حياتهم، فيعير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم ([121]).

فمعنى التغيير في الآيتين، أن الأمة التي تريد أن يحول الله عنها حالا لا ترضاه لمجتمعها، يجب أن تغير من نفسيتها أولا، فإن فعلت حول الله عنها ما تكره، ووجه إليها من نعمه ما تحب ([122]). وذلك وفق السنن والنواميس التي تحكم الحياة البشرية في إطار سنن حكيمة ترتبط بمشيئة الله سبحانه وتعالى أولا، وبالفعل البشري سلبا وإيجابا فردا وجماعة في كل زمان ومكان، وبموجب ذلك تتشكل حركة التاريخ الذي هو في نهاية المطاف سجل مستوعب للمواقف والتصرفات الاجتماعية بكل أشكالها وأنواعها ([123]).

فإذا قرر القرآن أن السلوك الإنساني أثر ونتيجة لما بنفسه وأن للإنسان قدرة على تغيير ما بالنفس ([124]). فإن معنى هذا أن الإنسان في هذه الحياة رهين سلوكه

---

[121] - تفسير الظلال 5/78 ويضيف وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم فقد قضت بذلك مشيئته وجرت بها سنته.

[122] - انظر مناهل العرف(ان 2/284، تأليف محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية ط الثالثة. د.ت

[123] - من الإشكالات المفهومية (مفهوم لفظ التغيير في الآيتين هل هو لمطلق التبديل والتحويل أم لتبديل خاص فقط وهو التحويل من الحسن إلى السوء، والظاهر من السياق في الآيتين أنه لتبديل خاص وهو من الحسن إلى السيئ.

غير أن المعنى اللغوي للفظة التغيير الذي منه التحويل والتبديل بالمغاير عامة (انظر اللسان مادة: غير) والظاهر من كلام بعض المفسرين أنها في المعنيين معا: "انظر تفسير ابن كثير 2/505. والتحرير والتنوير 13/102. وقد علق سيد قطب على آية الرعد بقوله: "يبرز السياق حالة تغيير الله ما بالقوم إلى السوء لأنهم حسب المفهوم من الآية غيروا ما بأنفسهم إلى أسوأ فأراد الله لهم السوء... ويبرز السياق هذا الجانب دون الجانب الآخر لأنه في معرض الذين يستعجلون السيئة قبل الحسنة قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليبرز غفلتهم، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم. انظر تفسير الظلال 5/78. والفكرة ذاتها بني عليها كتيب الأستاذ جودت سعيد "حتى يغيروا ما بأنفسهم" الذي اتخذ من آية الرعد محورا لمباحثه وفصوله.

[124] - إن الإنسان يفعل سببا معينا ينتج عنه خلق من الله، كخلق الإنسان وثمرة الزرع... انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم 90.

وموقفه من القوانين والسنن التي أودعها الله في خلقه، فقد ربط الله بين الأسباب والمسببات خلقا وقدرا بمشيئته وحكمته لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها ونجتنبها باجتناب أسبابها، فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب. وقد ذكر لنا القرآن الكريم تطبيق هذا في قوم يونس بقوله تعالى: (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة والدنيا...) ([125]) فالآية جعلت المبادرة إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر، سببا لكشف العذاب، لأنهم أبطلوا سببه، وأر شدنا الحق سبحانه وتعالى إلى سنته تلك في الأمم والأقوام بقوله: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض) ([126]). التي تنص على كون الإيمان والتقوى العلاج الوحيد، الذي بسببه يحول الله السيئ إلى الحسن، لأن التزامهما إقلاع عن أسباب العذاب ([127]).

ــــــــ(يتبع).

---

[125] - يونس 98.

[126] - الأعراف 95.

[127] - انظر مجالس للتذكير 195و 196.

القرآن العظيم في مشهود بديع الزمان سعيد النورسي

د. فريد الأنصاري كلية الآداب/مكناس

قصة بديع الزمان مع القرآن:

عجبا! كيف يصر الإنسان على التيه في الظلمات، ولا يستمد الشعاع من النور؟

والنور قريب! قال تبارك اسمه: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)(النور:35)، وقال جل وعلا: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)(البقرة:186). عجبا! وهذا القرآن العظيم يمد المؤمنين بنور لا يخبو أبدا! (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا. مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ. وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا. وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.)(الشورى:52-53).

فأين الإنسان؟

تَجَلِّي النُّورِ فَوْقَ الطُّورِ بَاقٍ ** فَهَلْ بَقِيَ الكَلِيمُ بِطُورِ سِينا؟[128]

---

[128] البيت للشاعر الباكستاني محمد إقبال، رحمه الله.

ولقد تجلى إعجاز القرآن لكل زمان، بصورة مناسبة لإنسان ذلك الزمان. وذلك ضرب آخر من ضروب الإعجاز! حتى جاء عصر ظلمات الفتن، التي أنذر رسول الله باندلاعها على أمته! فتجلى إعجاز القرآن - مرة أخرى - نورا أبصره الربانيون! فكشفوه للناس، كلٌّ حسب منزلته من موقع التلقي.

ولما كان أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، كانت الأمة الإسلامية بأكملها تقريبا؛ ترزح تحت كابوس الاستعمار! وكانت ظلمات! ثم كان النصف الأول من القرن العشرين مرحلةً لانتشار الأيديولوجيات والفلسفات المنكرة للدين والمشككة في حقائقه! فكانت ظلمات أخرى! وهنالك احتاج المسلمون إلى تجديد الصلة بالنور. ولكن للأسف كانوا لا يبصرون! على حد قول الله تعالى: (وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ)(الأعراف:198)، وقوله سبحانه: (وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)(يوسف:105). فاحتاجوا بذلك إلى (مُبَصِّرين)، وليس إلى (مُبْصِرين) فقط! فليس صدفة إذن؛ أن انطلق بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، في هذه الفترة بالذات: (1876م/1294هـ) إلى (1960م/1379هـ) يكشف إعجاز القرآن نورا، (يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(المائدة:16).

فعندما داهمت ظلمات العلمانية العالم الإسلامي، اختلف العلماء والمصلحون حول أشكال مناهضتها، من القتال الجهادي إلى السجال الفكري! واختار بديع الزمان حمل راية (إعجاز القرآن)، والعمل تحت رايتها فقط! بيد أن (إعجاز القرآن) كما حمله النورسي رحمه الله لم يكن مجرد درس بلاغي عتيق! بل كان منهجية جديدة لتبصير المسلمين حقائق القرآن في النفس وفي المجتمع، وبعث روح القرآن فيهم! فكيف بقوم انبعثت فيهم روح القرآن؟ ذلك هو الإعجاز! لقد كان الأستاذ رحمه الله ملقنا لبصائر القرآن بامتياز! وهنالك يكمن سر نجاحه التجديدي للدين. ذلك النجاح الذي لم يمت بموته، كلا! بل استمر نوره متدفقا على العالم، شاقا طريقا

من نور غريب نحو المستقبل. فإنما كان يقرأ القرآن ويفسره بمنهج استبصاري نادر! ومن هنا فإنك - وأنت تقرأ كلماته رحمه الله - تجده يخاطب من حين لآخر أجيالنا والأجيال التي بعدنا بوعي تام! وذلك من مثل قوله في نداء استبصاري عجيب: (يا إخوتي! ويا زملائي الذين يسمعون هذا الكلام بعد خمسين عاماً!)([129])

إنك لما تقرأ كليات رسائل النور؛ تشعر كأنما هذه الرسائل قد كتبت لزماننا هذا، أو كأنما كتبت للتو على إثر أحداث وقعت في المسلمين الآن، ولما نخرج من لهيبها بعد! ولا تكاد تسأل في حيرة الفجيعة: كيف الخروج؟ حتى تجد رسائل النور تسبق إليك بالجواب! تنتشلك من ظلمات الحيرة والاضطراب، وتوقظ وجدانك: أن افتح عين قلبك! وأذن روحك! وشهود بصيرتك! لتتلقى نور القرآن بنفسك، لا بواسطة غيرك. فتكون من المبصرين!

يقول رحمه الله في سياق تلقينه بصائر القرآن: (أتكلم في مكاني، لا في مقام السامع المواجه لي - خلافاً لسائر المتكلمين، الذين يفرضون أنفسهم في مقام السامعين - فيصير أمام كتابي [الذي] وجههُ إليّ، ومعكوسه ومقلوبه إلى السامع، فكأنه يقرأ في المرآة فيتعسّر عليه؛ فإذاً لا أذهب إلى مقامه، فليرسل هو خياله إليّ لأضيفه على عيني ، في رأسي؛ كي يرى كما أرى!)([130])

إن بديع الزمان حينما اختار طريق البيان لإعجاز القرآن؛ إنما اختار طريق العروج بالمسلمين إلى المقامات العلى، من الوعي بالوجود الديني، والتميز الحضاري. لقد اختار أن ينخرط في البناء الشامل لصرح (الأمة)! وليس فقط لبعض جزئياتها، أو لدفع بعض أزماتها العابرة، أو المتوهمة. ولطالما أشغل المصلحون بأزمات وهمية؛ إلهاء لهم عن صلب القضية الكبرى: بناء جيل القرآن! وذلك ما لم يكن ليكون إلا ببيان (إعجاز القرآن)، بالمفهوم الذي عرضناه

---

129 صيقل الإسلام: 518.

130 المثنوي العربي النوري: 218.

عند بديع الزمان النورسي رحمه الله، فلله دره! أي رجل كان!؟

لقد جاء على موعد مع التاريخ؛ ليكون به ما أرد الله لهذه الأمة، من إنقاذ الإيمان في الحاضر، وبناء الأمة للمستقبل! وقطعا لم يكن خروجه ببلاد الخلافة الإسلامية عبثا، أو صدفة، بل كان بعثة تجديد، وقَدَراً مقدورا! ما يزال يمتد في أفق هذه الأمة، ومستقبلها بتجليات شتى! اقرأ هذه القصة التي يحكيها عن نفسه رحمه الله في بيان نقطة البدء، تحت عنوان: (رؤيا صادقة حول إعجاز القرآن:

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وقبل إبّان نشوبها رأيت في رؤيا صادقة الآتي:

رأيت نفسي تحت جبل (آرارات).. وإذا بالجبل ينفلق انفلاقاً هائلاً، فيقذف صخوراً عظيمة كالجبال إلى أنحاء الأرض كافة! وبينما أنا في هذه الرهبة التي غشيتني رأيت والدتي - رحمة الله عليها - بقربي. قلت لها: لا تخافي يا أماه! إنه أمر الله، إنه رحيم، إنه حكيم. وإذْ أنا بتلك الحالة؛ إذا بشخص عظيم يأمرني قائلاً:

- **بيّن إعجاز القرآن!**

أفقتُ من نومي، وأدركتُ أنه سيحدث انفلاق عظيم! وستتهدم الأسوار التي تحيط بالقرآن الكريم؛ من جراء ذلك الانفلاق والانقلاب العظيم! وسيتولى القرآن بنفسه الدفاع عن نفسه! حيث سيكون هدفاً للهجوم، وسيكون إعجازه هو حصنه الفولاذي، وسيكون شخص مثلي مرشحاً للقيام ببيان نوع من هذا الإعجاز في هذا الزمان - بما يفوق حدّي وطوقي كثيراً - وأدركتُ أني مرشح للقيام بهذا العمل!)([131])

فلم يلبث أن وجد الرجل نفسه - بعد ذلك - يشق حياته بحثا عن حقائق القرآن. ووجد نفسه يسلك مسالك، كأنما يُدْفَعُ إليها دفعا، من غير تفكير منه سابق، ولا إرادة! فلم يدر كيف توارى (سعيد القديم) ليخرج من جبته (سعيد الجديد) ([132]): الرجل القرآني، الذي كشف إعجاز القرآن؛ فحاصر

---

131 المكتوبات: 475، وسيرة ذاتية:120.

132 ميز سعيد النورسي في رسائله بين شخصيتين من ذاته: الأولى شخصية (سعيد القديم) وهو الرجل الذي اختار الانخراط

العلمانية الرسمية بين أبراجها. ثم انخرط في تجديد بناء الأمة من القواعد! قال رحمه الله: (إن أكثر أحداث حياتي، قد جرت خارجة عن طوق اقتداري، وشعوري، وتدبيري؛ إذ أُعْطِيَ لها سيرٌ معينٌ، ووُجِّهت وجهةً غريبةً؛ لتنتج هذه الأنواع من الرسائل التي تخدم القرآن الحكيم. بل كأن حياتي العلمية جميعها بمثابة مقدمات تمهيدية؛ لبيان إعجاز القرآن!)([133]) فكان بديع الزمان سعيد النورسي في صورة (سعيد الجديد)! وكانت (كليات رسائل النور)!([134])

فلم تكن عبقرية بديع الزمان النورسي - رحمه الله - غير رشحة من رشحات القرآن العظيم، وومضة من ومضاته المتدفقة أبدا على العالمين! فالقرآن نور رباني عظيم (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا)(النساء:174). فلم يزل – منذ نزوله على محمد- متدفقا على البشرية من الأعالي!

ذلك هو القرآن، النور الإلهي المبين! وإنما تتلقاه القلوب الصقيلة الصافية. فهي وحدها تعكس من أشعته على قدر صفائها، فإذا بها تتلألأ في الآفاق مثل النجوم! واقرأ إن شئت قول الله جل علاه: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(النور: 35)

في الصراع السياسي، وذلك كان هو سعيد النورسي قبل الأربعين من عمره. أما (سعيد الجديد) فهو الرجل القرآني الذي تفرغ لبناء المنهج القرآني في المجتمع، مرددا عبارته المشهورة: (أعوذ بالله من الشيطان ومن السياسة!)

[133] سيرة ذاتية:10.

[134] (كليات رسائل النور): هو الذي الاسم الذي أطلقه النورسي على مجموع رسائله في الدعوة والإرشاد. وهي تزيد على مائة وثلاثين رسالة.

من هنا إذن؛ من منابع النور.. انقدحت مواجيد بديع الزمان النورسي؛ فكانت (كليات رسائل النور)! لقد انجلى لبصيرته النافذة أن التحدي الرهيب للدين، ولحقائق الإيمان في هذا العصر العصيب؛ لن يقف في وجهه غير سيف القرآن البتار! فنبذ كل الأسلحة إلا سلاح القرآن العظيم. وانبرى لإعلان إعجاز القرآن بلغة جديدة ومنهج جديد، منهج مستوحى من القرآن نفسه، فكان له – لذلك - من النجاح ما شهدت به الأيام بعدُ؛ بأعلى صوت الزمان وملء فمه! واستطاع بحركته القرآنية أن يشق ظلمات العلمانية الملحدة، بشعاع القرآن وحده، وأن يبني جيلا من طراز فريد، يتحدى به كل أنواع الفتن، فأنبت حقائق الإيمان ريانة خضرة، على أرض أحرقتها الزندقة الجديدة وألهبت كل نبتة للخير فيها! لكن كشف حقائق الإيمان برسائل النور، وإظهار إعجاز القرآن للعالمين في هذا العصر كانت له جولة جديدة من جولات المعجزة المحمدية الخالدة، تلك المعجزة التي نطق بها القرآن العظيم، وجعلها حقيقة كونية سرمدية قاهرة: (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)(التوبة:32-33).

ذلك سر من أسرار القرآن! فلنطل إذن مع بديع الزمان على بعض ذلك من خلال ما عرضه من مشاهدات عن القرآن!

- مفهوم (القرآن) في التعريفات اللغوية:

تكاد تجمع معاجم اللغة على أن الأصل الدلالي لمادتي: (قرأ) و(قري) إنما هو معنى الجمع والاجتماع، وما تفرع عنه. سواء همزت آخره أم لم تهمزه، فهو في ذلك سواء. ومنه سمي (القرآن) قرآنا؛ لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص والعبر، أو لاجتماع آيه وسوره وتألفها. قال ابن فارس: (القاف والراء والحرف المعتل: أصل صحيح يدل على جمع واجتماع. من ذلك القرية؛ سميت قرية لاجتماع الناس فيها. ويقولون: قَرَيْتُ الماءَ في

المقراة: جمعته (...) وإذا هُمِز هذا الباب كان هو والأول سواء (...) قالوا: ومنه القرآن، كأنه سمي بذلك لجمعه ما فيه من الأحكام والقصص وغير ذلك.)([135])

وقال صاحب مختار الصحاح: (قرأ الكتابَ قراءة وقُرآنا بالضم. وقرأ الشيء قُرآنا بالضم أيضا: جمعه وضمه. ومنه سمي (القرآنُ)؛ لأنه يجمع السور ويضمها) ([136]).

وذلك ما نجده لدى ابن منظور، رغم ما أورده من كثرة الاستعمالات للمادة اللغوية، ودلالاتها. قال رحمه الله: (قَرَأَهُ يَقْرَؤُه ويَقْرُؤُه (...) قَرْءاً وقِراءَةً وقُرْآنا (...) يسمى كلام الله تعالى الذي أنزل على نبيه كتابا وقرآنا وفرقانا. ومعنى القرآن: معنى الجمع. وسمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها. وقوله تعالى: "إن علينا جمعه وقرآنه"(القيامة:17) أي جمعه وقراءته. "فإذا قرأناه فاتبع قرآنه"(القيامة:18) أي قراءته. (...) وقال بعضهم: قرأتُ: تفقهتُ. ويقال: أَقْرَتُ في الشعر، وهذا الشعر على قَرْء هذا الشعر: أي على طريقته ومثاله. (...) والقَرْءُ: الوقت. قال الشاعر:

إذا ما السماء لم تَغِمْ ثم أَخْلَفَتْ *** قُروءَ الثُّرياَّ أنْ يكون لها قَطْرُ

يريد وقت نوئها الذي يمطر فيه الناس.

(...) والقَرْء والقُرْء: الحيض، والطهر ضد. وذلك أن القرء الوقت، فقد يكون للحيض والطهر.)([137])

وربما كان الأصل - من حيث الوضع اللغوي - لمادة (قرأ) دالا على الجمع، فكانت (القراءة) - بمعنى: تلاوة الحروف - من فروعه، من حيث إن القارئ يجمع الحروف ويضم بعضها إلى بعض عند التلاوة؛ إلا أن الإشكال هنا هو: هل اسم (القرآن) من الجمع بمعنى الوضع الأول، أم بمعنى القراءة والتلاوة التي هي فرع استعمالي؟

---

135 المقاييس، مادة: (قري).

136 مختار الصحاح، مادة: (قرأ).

137 اللسان: (قرأ).

فرغم أن أغلب كتب اللغة - كما رأيت - مالت إلى ترجيح الأول فإن أبا جعفر الطبري (المتوفى سنة:310هـ) مال في تفسيره - وهو من الأصول اللغوية أيضا - إلى ترجيح الثاني. أي أن (القرآن) - عنده - إنما سمي كذلك؛ لأنه يقرأ بمعنى: يتلى، وليس بمعنى يُجمع. قال رحمه الله: (فأما القرآن: فإن المفسرين اختلفوا في تأويله. والواجب أن يكون تأويله على قول ابن عباس، من التلاوة والقراءة. وأن يكون مصدرا، من قول القائل: قرأت القرآن، كقولك الخسران من خسرت، والغفران من غفر الله لك. (...) وأما على قول قتادة، فإن الواجب أن يكون مصدرا، من قول القائل: قرأت الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض. كقولك ما قرأت هذه الناقة سلاً قط: تريد بذلك أنها لم تضم رحما على ولد (...).

ولكلا القولين، أعني قول ابن عباس وقول قتادة اللذين حكيناهما وجه صحيح في كلام العرب. غير أن أولى قوليهما بتأويل قول الله تعالى: {إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه}(القيامة:17-18) قول ابن عباس؛ لأن الله جل ثناؤه أمر نبيه في غير آية من تنزيله باتباع ما أوحي إليه، ولم يرخص له في ترك اتباع شيء من أمره إلى وقت تأليفه القرآن!)[138]

والراجح - والله تعالى أعلم - أن يكون المعنيان معا مقصودين في دلالته اللغوية؛ وذلك بغض النظر عن خصوص دلالة آية سورة القيامة، مما أورده أبو جعفر رحمه الله، فلا يمنع ورود المعنى الجزئي أن يكون الكلي - وهو أشمل منه طبعا - مقصودا أيضا. فيكون (القرآن) قد سمي بذلك؛ لجمعه المعاني كلها. وهو معنى وجيه جدا. قال عز وجل: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) (الأنعام:38) ولأنه مؤلف مجموع متناسق، ثم لأنه إنما أنزل ليقرأ ويتلى. وكل ذلك حسن جدا في معنى (القرآن) لغة. فلا تزاحم بين هذه المعاني جميعها، ولا تعارض.

---

138 جامع البيان:1/42ـ43.

وهذا ما يفهم أيضا مما أورده الراغب الأصفهاني(ت: 502 هـ) - من قبل - في كتابه القيم (المفردات في غريب القرآن). قال رحمه الله: (القراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل (...) قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنا من بين كتب الله: لكونه جامعا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم! كما أشار إليه بقوله: {وتفصيلَ كل شيء}(يوسف:111) وقوله: {تبيانا لكل شيء}(النحل:89)([139])

ولعل هذا المسلك التوفيقي بين الدلالتين اللغويتين، هو الأقرب إلى تفسير بديع الزمان النورسي لمفهوم القرآن الكريم، من حيث هو اصطلاح، كما سترى بحول الله.

مصطلح (القرآن) بمشهود بديع الزمان النورسي:

هذا، وأما تعريف (القرآن) عند النورسي من حيث هو مصطلح، وُضِع للدلالة العَلَمية على (كلام الله رب العالمين، المنزل على رسوله محمد بن عبد الله، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر) على حد تعبير علماء القرآن؛ فقد كانت له فيه صياغة لطيفة خاصة. إلا أنها كانت من مخاض المعاناة الوجدانية، والتجربة التفكرية.

فالنورسي رحمه الله ملم طبعا بتعريفات المفسرين وعلماء القرآن، لكنه لم يكن يقصد في بيان (مفهوم القرآن)؛ إلى صياغة تعريف رسمي أو حدي - على طريقة المناطقة - غايته حصر العقول في معنى (القرآن) من حيث هو (مصحف مكتوب)، بما لا يدع مجالا للخلط بينه وبين غيره، أو تحريفه بالزيادة والنقصان، فتلك غاية تكفل الله بها سبحانه، إذ قال عز وجل: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)(الحجر:9). وعلماء القرآن والمفسرون ثم حفاظ الأمة من ورائهم، هم الذين سخرهم الله جل جلاله؛ لتنفيذ هذه المهمة العظيمة. إلا أن بديع الزمان ما كان يسعى إلى هذا، بقدر ما كان يسعى إلى محاولة

---

139 المفردات: (قرأ).

تعريف (القرآن) من حيث هو (كلام رب العالمين) المتوجه برسالته إلى الإنسان حامل الأمانة! فكأنه رحمه الله كان يروم تعريف (القرآن) من حيث هو مضمون، ومقاصد، لا أحرف ورسوم. بمعنى أنه كان يحاول تعريف القرآن من حيث هو رسالة ربانية، تحدد غاية الوجود البشري في الكون، وتلخص قصة التكوين، وترسم للإنسان مدار فلكه الذي ينبغي له أن يسلكه إلى ربه.

وهنا مكمن الصعوبة، أو قل المغامرة؛ وذلك راجع إلى الطبيعة (المطلقة) لهذا المصطلح من جهة، فهو كلام الله جل جلاله؛ وإلى كون الأستاذ إنما حاول تعريف (القرآن) عبر (المشاهدة) و(التفكر الوجداني). وهو مما يصعب - إن لم يستحل - نقل معانيه عن طريق اللغة الواصفة!

لقد تحاشى بديع الزمان - في تعريفه للقرآن - التعريف المنطقي التقليدي للمصطلحات والمفاهيم، من (حدود) و(رسوم)، وجاء بتعريف (ذوقي)، لا يطمع إلى الإحاطة بالمفهوم، إذ كلمات الله لا يحيط بها أحد، وإنما حاول خلاله (تذويق) المتذوقين: (ما القرآن؟). و(الذوق) لا يقع في العادة إلا على جزء. لكنه إذا كان ذوقا صحيحا أنبأك عن طبيعة الباقي على الجملة، وصور لك مخايل المعنى الكلي غيبا، وغمرك شوقا إلى تذوق الباقي. ومن هنا سمى النورسي ما صاغه من تعريف لمصطلح القرآن: (لمعة من تعريف القرآن)[140].

وبالرغم من أنه سماه (لمعة)؛ إلا أنه لم يرد في جملة واحدة، أو جمل قصيرة على غرار التعريفات المنطقية القائمة على تحديد الفصول والخصائص. بل جاء في فقرات من البيانات الإشارية، والعبارات الذوقية؛ لأن النورسي رحمه الله كان يعلم، بل كان يشعر و(يجد) أنه بإزاء الحديث عن (كلام الله)! وكفى بذلك عظمة أن لا يحدث عنه الإنسان إلا رمزا! وأي عبارة في اللغة بإمكانها أن تحيط بحرارة الشوق، وأنوار المشاهدة، التي تتدفق على قلب المشاهد لجمال القرآن وجلاله؟ والنورسي

---

140 إشارات الإعجاز: 5/22

شاعر بذلك، ومعتبر له في تعريفه. قال رحمه الله: (إن الكلام الإلهي سبحانه لا نهاية له، وذلك بسر الآية الكريمة: "قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي" الآية (الكهف: 109))([141]).

ونحن هنا بحول الله نورد تعريفه أولا، ثم ندرسه؛ لبيان المقاصد التذويقية التربوية التي تضمنها، والفضاءات الوجدانية التي سبح فيها، وآثار ذلك كله على المتلقي مما هدف إليه النورسي وقصده في هذا التعريف.

قال رحمه الله: (فإن قلت: القرآن ما هو؟ قيل لك:

"هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم.. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.

وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛

---

141 الشعاعات:4/189.

حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة رسائل".)([142])

وإنما غاية مقالنا هذا أن نقتبس من هذا التعريف الهام للقرآن الكريم قضايا نفصلها كما يلي:

القرآن كلام الله:

إن ما بهر النورسي من ذلك، وأفاض مشاعره؛ هو أن القضية الأولى هنا هي من العظمة والرهبة؛ بحيث يستحيل على القلب البشري تحمل مواجيدها! بدءا بالتفكر في هذا الكون الشاسع، الممتد في فضاءات لا يحدها بصر ولا تصور ولا خيال! وما يسبح فيه من نجوم وكواكب ومجرات وسدم غائرة بعيدة بملايين السنوات الضوئية، وما يحيطها من سماوات بعضها فوق بعض، وما يعمرها من خلائق نورانية، مما لا يدرك له كنه، ولا صورة، إلى ما بين هذا وذاك، من طبقات الزمان المختلفة؛ عدا، وتقديرا، ونسبة، من الأيام والسنوات، قد يختزل اليوم الواحد منها (ألفَ سنةٍ مما تَعُدّون)(السجدة:5) إلى (خمسينَ ألفَ سنة)(المعارج:4)! ورب هذه العوالم جميعها، الخالق لها، والمحيط بأزمنتها وأمكنتها كلها، المدبر شؤون حياتها ومماتها وأرزاقها، بقيوميته الممتدة من الأزل إلى الأبد، المالك زمام أحوالها بأنوار أسمائه الحسنى وصفاته العلى، سبحانه وتعالى! هذا الرب الرحمن الرحيم، والملك العظيم، المتنزه في مطلق علوه، وسموه، وجلاله، وكبريائه؛ يقَدّر برحمانيته ورحمته أن يكرم الإنسان، هذا المخلوق الضعيف الضئيل، القابع في الأرض؛ هذا الكوكب الضئيل السابح في بحر عظيم زاخر بأمواج السدم والمجرات، فيكون من أعظم مقامات هذا التكريم؛ أن يخاطبه بهذا الكلام الإلهي العظيم: القرآن الكريم!

---

[142] إشارت الإعجاز:5/22 والمكتوبات:2/267

فكيف للنسبي الفاني أن تتحمل مواجيده كلام المطلق الباقي؟ كيف للقلب المحكوم بالزمان والمكان، أن تستوعب خفقاته المعدودة، وأنفاسه المحدودة؛ وقع الكلام الخارق للزمان والمكان؟

تلك هي القضية المزلزلة للكيان الإنساني، في قلب الأستاذ الذواقة، بديع الزمان سعيد النورسي، والمفجرة لكل طاقاته الوجدانية، التي سطرها ألحانا وأنغاما في رسائل النور. فمن ذا قدير إذن؛ على وضع حد معرف، أو رسم شارح لـ(مفهوم القرآن الكريم)؟ وما زعم النورسي أنه يعرف القرآن على سبيل (الحد الجامع المانع) بتعبير المناطقة، وما قدمه من تعريف؛ إنما هو فيض من أنوار قلبه، وما قلبه إلا قمر من الأقمار السيارة، العاكسة لأشعة الأسماء الحسنى! فأكرم بذلك مقاما للعارفين الصديقين! وأما كتاب الله فلا تحيط به حدود، ولا ترسمه تعريفات! وإنما غاية الأقمار السالكة في فلكه أن تقتبس منه (لمعة من تعريف) كما عبر النورسي من قبل.

قال رحمه الله في تعريف ملخص للتعريف السابق، وشارح له في الآن نفسه، ومبينا كيف أن مصدرية القرآن العليا، من حيث هو (كلام الله)؛ قد رفعته فوق كل الحدود والرسوم: (إن مَنْحَ القرآن الكريم أعلى مقام من بين الكلمات جميعا - تلك الكلمات التي لا تحدها حدود - مرده أن القرآن قد نزل من الاسم الأعظم، ومن أعظم مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى. فهو كلام الله بوصفه رب العالمين، وهو أمره بوصفه إله الموجودات، وهو خطابه بوصفه خالق السماوات والأرض، وهو مكالمة سامية بصفة الربوبية المطلقة، وهو خطابه الأزلي باسم السلطنة الإلهية العظمى. وهو سجل الالتفات والتكريم الرحماني، نابع من رحمته الواسعة المحيطة بكل شيء. وهو مجموعة رسائل ربانية تبين عظمة الألوهية (...) وهو الكتاب المقدس الذي ينشر الحكمة. ولأجل هذه الأسرار أطلق على القرآن الكريم بما هو أهله ولائق به؛ اسم: (كلام الله)!)[143]

---

143 الكلمات:1/147

إن حقيقة كون القرآن الكريم (كلام الله رب العالمين) تجعل المؤمن - إذ يقرؤه ويرتله أو يتدبره ويتدارسه - يَنشَدّ إلى أشعة الأسماء الحسنى، ويتعلق بأنوار الربوبية. وذلك من أعظم ما غمر قلب بديع الزمان، وصاغ معماره المنقوش بالمحبة المتوقدة! ولذلك قلنا: إنه إنما انبهر بالقرآن من حيث هو خطاب رباني، وما فاض عنه من مواجيد مفهومية أو تفسيرية؛ إنما فاض من حيث تدبره لهذه الحقيقة العظمى التي لا تطاق! وذلك ما أشار إليه في النص السالف، وهو ما فتئ يكرره ويعيده، تماما كما يكرر المحب اسم محبوبه، بغير إرادة منه ولا اختيار. وذلك نحو قوله الذي يشبه نوعا من الانجذاب: (القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو كلام رب العالمين) ([144]). ربما يقول قائل: إن هذا الكلام بدهي! أي أن (القرآن هو كلام رب العالمين)؛ كلا! إن النورسي لم يتكلم بعبارات وإنما تكلم بدلالات ومعان! وهي بكل تأكيد من غرائب الحقائق. فقوله هذا رحمه الله: (القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو كلام رب العالمين) فيه دلالة واضحة على أنه ينبه إلى أمرين:

- الأول: غفلة الناس عما بين أيديهم! فهذا القرآن مكتوب في المصاحف المنتشرة في كل مكان، وبين أيدي كل الناس. ولكن المشكلة أن آفة التعود قتلت حاسة التدبر والتفكر في الإنسان. فعميت البصائر أن ترى حقيقة القرآن الكريم الكونية، ومفهومه الرباني، رغم أنه بين أيديها!

- الثاني: إثارة الانتباه بهذا التعريف إلى أن الذي يجب أن نشهده في القرآن - بالقصد الأول - إنما هو جلال الله رب العالمين، وجماله تعالى، من حيث إنه هو سبحانه المتكلم به! وهذا أيضا مما طمسه التعود والجهل لدى الناس. فالنورسي في هذا الأمر هو أشبه برجل رأى آخر عثر على حجر من ذهب وهو لا يدري أنه من ذهب، فجعل هذا يستعمل الحجر لأمر وضيع، غير لائق بالذهب؛ بينما جعل العارف بالذهب يتأسف ويتحرق؛ أسى على تضييع

---

144 اللمعات:3/346.

ذلك الجاهل لما بين يديه من مال عظيم! ومن هنا صيحة النورسي وتنبيهه إلى عظمة ما (بين أيدينا): (إن القرآن الذي بين أيدينا...).

إن الوجدان الذي صدر عنه تعريف القرآن لدى النورسي هو وجدان منبهر بالربوبية العظمى! إن كل المسلمين يعرفون أو يقولون: (إن القرآن هو كلام الله). ولكن قليلا منهم يستحضر في قوله هذا؛ أن الله جل جلاله قد تكلم بهذا القرآن؛ من حيث هو (رب العالمين). إن ذلك يعني أن آفة التعود - كما ذكرنا - قد قتلت حاسة التدبر في الإنسان؛ ففقدت القلوب بذلك إحساسها بالقرآن العظيم، الذي لم تطقه حتى الجبال الشامخات، كما في قوله عز وجل: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله)(الحشر:21).

إن ههنا لدينا حقيقة مهمة في فهم خصوص مقصد بديع الزمان التعريفي هنا؛ وهي أن الهدف الأساس من تعريف الناس بالقرآن إنما هو تعريفهم بالله؛ ولذلك سلك إليه من باب الربوبية. وللربوبية ذوق خاص لديه رحمه الله، فهي تشير عنده إلى تجلى الأسماء الحسنى على الكون كله من حيث الخلق والقيومية، وما تعلق بهما من أسماء وصفات ربانية. فكل جزيئية في الكون، وكل ذرة؛ من كل شيء إنما هي متعلقة بهذا الرب: (خالق كل شيء)(الأنعام:102). وذلك بتعلقها باسمه الأعظم سبحانه، وأسمائه الحسنى، الناطقة بجلال ملكه، وشمول سلطانه. إن القرآن الكريم كمفهوم تعريفي لدى النورسي يقود إلى هذه الحقيقة الكبرى: معرفة الله تبارك وتعالى (رب العالمين)! وذلك عين الحقيقة الإصلاحية التي قام عليها مشروع النورسي الإصلاحي التجديدي، ومن أجلها، مشروع إنقاذ الإيمان وتجديده في المجتمع الإنساني، هذا المشروع الذي اعتمد فيه خاصة على تجديد الوعي (بالقرآن) بما ذكرنا من مواصفات مقاصدية، وهو أمر يصرح به النورسي بكل وضوح، وذلك قوله: (الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية

وأحوالها.)([145]) من هنا إذن كان اهتمامه بكتاب الله، ومن هنا أيضا كان منطلق تعريفه إياه.

يقول رحمه الله في تعريف آخر للقرآن الكريم، أوضح في الدلالة على خصوص انبهاره بجمال الربوبية وجلالها: (إن القرآن كلام الله باعتبار أنه رب العالمين، وبعنوان إله العالمين، وباسم رب السماوات والأرضين، ومن جهة الربوبية المطلقة، ومن جهة السلطنة العامة، ومن جانب الرحمة الواسعة، ومن حيثية حشمة عظمة الألوهية، ومن محيط اسمه الأعظم إلى محاط عرشه الأعظم)([146]). إن هذا النص الفريد لدى النورسي ليؤكد أن الرجل كان ينصت إلى القرآن الكريم إنصات من يستحضر منازله العليا، وحركة الوحي وهي تعبر الكون العظيم، فتطوي طبقات السماوات طيا! لتغمر المكان والزمان بأنوارها! وتنشئ بعد ذلك حركة مباركة، تمتد في التاريخ البشري؛ عمرانا حضاريا، لا يفتأ يتجدد أبدا، ما دام لهذا القرآن مرتلون ومتدبرون!

إن (مفهوم القرآن) بهذا المعنى؛ يمتد عبر الكون كله؛ انطلاقا من نور الاسم الأعظم؛ إلى صناعة التاريخ الإنساني في الأرض! ومن التكوين الأول إلى التكوين الثاني، أو من الدنيا إلى الآخرة! من هنا إذن؛ ما كان لبشر أن يحد القرآن، من حيث هو (كلام رب العالمين)؛ إلا أن يجد (لمعة من تعريف القرآن). وإلا فإنه لا حد له إلا أن تقول: (القرآن هو: القرآن)!

إن مفهوم القرآن مفهوم غيبي. والغيب قاض على عالم الشهادة، ومحيط به! وما كان للمحاط أن يكون أقوى من المحيط! ولذا فإن النورسي كان واضحا في اشتراط (سلامة القلب) على من قصد مشاهدة جمال القرآن. قال: (لقد شاهدت أن مشاهدة جمال القرآن تابعة لدرجة سلامة القلب وصحته. فمريض القلب لا يشاهد إلا ما يشوه له مرضه! فأسلوب القرآن والقلب،

---

145 الكلمات:1/293

146 المثنوي العربي:6/463، ن. مثله في: اللمعات:3/346.

كلاهما مرآة، ينعكس كل واحد في الآخر)([147]). هذا، وأما القضية الثانية من قضايا التعريف، المعتمد لديه لمفهوم (القرآن) فهي:

كونية القرآن الكريم:

إن معنى (الكونية) هو من لوازم الوحدة الأولى، أي كون القرآن (كلام الله باعتباره رب العالمين). فالربوبية قاضية على كل معاني الشمول والامتلاك والسلطنة! ذلك أن (القرآن) من حيث هو كلام رب العالمين، متضمن لمعنى الربوبية، الجامعة لكل عناصر الكون امتلاكا وقهرا. كما أن الكائنات - من خلاله - تدور جميعها حول هذا المعنى، سالكة إلى الله خالقها، منجذبة إلى نوره تعالى. ومن هنا كان القرآن وهو - خطاب إلى الإنسان - خطابا كونيا أيضا، لاسيما وأن (الله سبحانه خلق الإنسان، وجعله نسخة جامعة للكائنات، وفهرستة لكتاب العالم)([148]). ثم إن القرآن فيه (كل شيء) ويتحدث عن (كل شيء)!

ويمكن تفصيل (كونية القرآن) - من حيث هو مفهوم - فيما يلي:

يقول النورسي: (فكأن القرآن المنزل عليه قراءة لآيات الكائنات)([149]). ومعنى ذلك أنه كتاب كاشف للغز الحياة بصورة بسيطة. فهو يقدم الصعب المعقد تقديما سهلا ميسرا؛ ولذلك سهل على العامة؛ بل حتى على الأميين؛ (قراءة) مقاصده من خلال أبعاده الكونية؛ إذ يلفت الانتباه إلى مظاهر الكون التي يبصرها كل ذي عينين؛ ليتفكر في خلق السماوات والأرض. كل على حسب طاقته، وسعة إدراكه، فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطابا لجميع الناس، بجميع مستوياتهم الثقافية، واختلافاتهم اللغوية والعرقية. وهو ضرب من ضروب الإعجاز. يقول بديع الزمان: (انظر إلى درجة رحمة القرآن الواسعة، وشفقته العظيمة على جمهور العوام، ومراعاته لبساطة أفكارهم، ونظرهم غير الثاقب

---

147 المثنوي العربي:6/157

148 إشارات الإعجاز:5/27

149 اللمعات:3/498

إلى أمور دقيقة! انظر كيف يكرر ويكثر الآيات الواضحة، المسطورة في جباه السماوات والأرض! فيقرئهم الحروف الكبيرة التي تُقرأ بكمال السهولة، كخلق السماوات والأرض، وأمثالها من الآيات، ولا يوجه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلا نادرا، كيلا يصعب الأمر عليهم. ثم انظر إلى جزالة بيان القرآن وسلاسة أسلوبه وفطريته، كيف يتلو على الإنسان ما كتبته القدرة الإلهية، في صحائف الكائنات؛ من آيات؛ حتى كأن القرآن قراءة لما في كتاب الكائنات وأنظمتها، وتلاوة لشوون بارئها المصور، وأفعاله الحكيمة. فإن شئت استمع بقلب شهيد لقوله تعالى: {عم يتساءلون} و{قل اللهم مالك الملك}(آل عمران:26) وأمثالهما من الآيات الكريمة.)([150])

ومن هنا كان القرآن بحق - كما قال النورسي - (مفسر كتاب العالم، وحجة الله على الأنام)([151]). كل الأنام، عالمهم وجاهلهم، عربهم وعجمهم؛ لأن اللغة العربية ليست شرطا في قراءة الكون! فيكفي أن تفهم المعنى من القرآن الكريم أو بالأحرى بعضه، ولو مترجما لينطلق الفكر في (القراءة) للأحرف الكبيرة، فما العالم كله إلا كتاب كبير.

رسالية القرآن الكريم وغايته التعبدية:

وتلك قضية أخرى؛ وذلك أن القرآن الكريم رسالة إلى العالم البشري من رب الكون!

وهذه الجملة كافية لبيان الدلالة المفهومية العظيمة للقرآن؛ ذلك أن الله تبارك وتعالى لم يكن يتكلم بالقرآن وكفى، ولكنه كان يخاطب به مخاطبا ما، ذلك المخاطب هو الإنسان. وهذه حقيقة من أعظم الحقائق التي قتلها (التعود) البشري الذي يطمس كثيرا من الحقائق العظيمة في هذا العالم. ولعل النورسي بتفكره وتدبره قد اهتز وجدانه لهذه الحقيقة الكبرى. فكان أن وجد نفسه منجرفا بشكل وجداني لخدمة هذا القرآن. ومن هنا انبنى

---

150 اللمعات:3/196

151 المثنوي العربي النوري:6/55

مشروعه كله على هذا الهدف غاية ووسيلة. أي أنه جعل القرآن غايته وهو في الآن نفسه وسيلته. ومن هنا جاء في تعريف القرآن لديه، مما سبق ذكره: (وكذا هو مرب للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.)

فأنت ترى أن النورسي لم ينظر إلى القرآن - في جانبه التشريعي - على أنه مجرد مصدر من مصادر التشريع، أو المصدر الأول للتشريع وكفى! كما هو منصوص عليه في البحوث الأصولية والفقهية. بل لقد نظر إلى هذه الشريعة القرآنية على أنها تربية للعالم الإنساني، ونور له في عالم الظلمات، تهديه إلى منابع الخير والجمال، لتنتهي به إلى غاية الغايات: ألا وهي الوصول إلى الله. ومن هنا كان القرآن عنده (معراجا) للمؤمنين.

لقد كان انتباه النورسي إلى المعنى الرسالي للقرآن بابا فتح عليه من معاني النور مواجيد لا تنتهي لذاذاتها أبدا. وبهذا المنظار نظر إلى رسول الله محمد بن عبد الله: إنه رسول جاء بالقرآن! فأعظم به من رسول إذن! جاء يحمل هذا الكتاب الكوني العظيم إلى البشرية على أنه رسالة من رب الكون إليهم. قال بديع الزمان واصفا إياه بأنه: (أعظم من استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم، وأداها أفضل أداء في أسمى مرتبة، وأبلغ صورة، وأحسن طراز، فلبى إرادة رب العالمين في صرف وجه هذا الإنسان من الكثرة إلى الوحدة، ومن الفاني إلى الباقي)([152]).

إن قيمة الرسالة - أي رسالة - تتحدد أولا وقبل أي شيء بقيمة مصدرها: أي معرفة من أرسلها؟ ومن هنا كان من فطرة الإنسان أن يبادر كلما تسلم رسالة بشرية

[152] المكتوبات:2/278

إلي النظر في الغلاف؛ لمعرفة الجهة أو الشخص الذي أرسل إليه تلك الرسالة. وهناك يتحدد عنده الاهتمام أو عدمه، إذ يعرف (مَن؟) فيكترث ويهتم بقدر قيمة المرسل عنده. لقد انبهر بديع الزمان بالقرآن الكريم أشد انبهار. إذ وجد أن المرسِل هو الله رب العالمين! ولذا كان لا يفتأ يذكر هذا المعنى العظيم في كل مبحث من مباحث رسائل النور، لا يكاد يسكت عن ذلك، و لو قليلا! ولقد أوردنا من ذلك شواهد عند بيان (الوحدة) الأولى من وحدات التعريف، فلا حاجة للإعادة.

فإذا تمت لديه عناصر (الإرسالية) عظم الشأن عنده أكثر، ووصل الانبهار إلى غايته: وهي الانخراط في سلك الخدمة والسير إلى الله على سبيل الإصلاح والتجديد، وإيقاظ همم الناس: كأنه انتفض ليقول لهم: أيها الناس إن هذا القرآن هو رسالة رب العالمين إليكم! لقد أدرك بديع الزمان (عناصر الإرسالية). ذلك أن عناصر الإرسالية الأربعة تتحد بوجود المرسل، والمرسل إليه، والمضمون المرسل به، أو القصد، ثم المقام الشامل لظروف الرسالة. فالقرآن كلام رب العالمين هو، بذاته سبحانه المتكلم به؛ رسالة إلى الناس الحيارى - بدونه - في هذه الأرض. فهم إذن المخاطبون به. ولذلك جاء فيه أن هذا سبيل النجاة لكم أيها الحيارى! هذا كشف اللغز الكوني الرهيب! هذا بلسم الحيرة والقلق المحيط بالإنسان؛ من توقع الفناء والعدم. هذا بيان البدء والنشأة والمصير. هذه قصة الخلق كاملة ملخصة، بما لا يدع مجالا للشك، أو الحيرة، والتردد في الانطلاق سيرا إلى هذا الرب الرحمن الرحيم، الذي خلق ثم هدى! ذلك مضمون الرسالة. وأما مقامها فهذه الظروف البشرية الحياتية في الكرة الأرضية، وهذا السير البشري المتدفق في كل الاتجاهات؛ بحثا عن مخرج ما من ظلام لغز الحياة، وطلسم وجود الكائنات، وتناقض المذاهب والفلسفات!

في خضم كل ذلك جاء القرآن يحمل رسالة الهداية إلى الناس. إن بديع الزمان تحدث عن سر إعجاز القرآن فقال بكلمة موجزة، لكنها دالة حكيمة. قال رحمه الله:

(اعلم أن منابع علو طبقة الكلام، وقوته، وحسنه، وجماله؛ أربعة: المتكلم، والمخاطب، والمقصد، والمقام، لا المقام فقط كما ضل فيه الأدباء! فانظر إلى من قال؟ ولمن قال؟ ولما قال؟ وفيما قال؟ فالكلام إن كان أمرا ونهيا فقد يتضمن الإرادة والقدرة بحسب درجة المتكلم، فتتضاعف علويته وقوته!)([153])

إن المفهوم الرسالي للقرآن الكريم قائم أساسا على تبليغ مضمون ما للناس. ذلك المضمون هو الذي سماه بديع الزمان - في عدة مواطن من رسائل النور - بـ (مقاصد القرآن الأربعة) وهي: (التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة). قد تختلف عباراتها من نص إلى آخر، وقد تتفق، ولكن المضمون واحد. قال رحمه الله: (إن المقاصد الأساسية من القرآن، وعناصره الأصلية أربعة: التوحيد، والنبوة، والحشر، والعدالة)([154]). وقال أيضا: (فاعلم أن المقصد الأصلي في القرآن الكريم هو إرشاد الجمهور إلى أربعة أساسات هي: إثبات الصانع الواحد، والنبوة، والحشر، والعدالة)([155]).

خاتمة:

إن الرسالة القرآنية قائمة على إثبات هذه المقاصد؛ لتكون هي أساس (الوظيفة) التي نزل القرآن الكريم من أجلها، أعني الهدف الأسمى الذي يمثل المفهوم الرسالي

153 المثنوي العربي:6/78.
154 إشارات الإعجاز:5/23
155 إشارات الإعجاز:5/177

للقرآن الكريم. ذلك أن إثبات المقاصد الأربعة لم يكن من أجل إثباتها لذاتها؛ لأنها ثابتة بالأصالة عند الله عز وجل، وإنما كان الإثبات مقصودا من أجل أن يقوم الإنسان بوظيفة العبودية لله الواحد القهار، ويؤدي خدمته التي أنيطت به في هذا الكون، ألا وهي التعلق بأنوار الأسماء الحسنى، والانتساب إلى دائرة الربوبية من خلال دائرة العبودية؛ ومن هنا كانت (رسالة القرآن) هي تعليم الناس شؤون الدائرتين. يقول بديع الزمان: (الوظيفة الأساسية للقرآن الكريم هي تعليم شؤون دائرة الربوبية، وكمالاتها، ووظائف دائرة العبودية وأحوالها.)([156]). وبهذا المعنى كان القرآن الكريم هو (المعراج) التعبدي للعبد السائر إلى الله. ذلك أن الدخول إلى (الحقيقة) من باب خدمة القرآن والاشتغال به؛ هو (المعراج القرآني الذي يعلنه ببلاغته المعجزة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق وأوضحه، وأقربه إلى الله، وأشمله لبني الإنسان. ونحن قد اخترنا هذا الطريق!)([157])

من أجل ذلك كان القرآن عند بديع الزمان النورسي هو جوهر دعوة التجديد، وعمودها الأساس. لم تقم إلا به ومن أجله! هو المصدر، وهو المنهج، وهو البرنامج! منه وإليه يرجع كل شيء عند النورسي: تفسير الكون، وتفسير الحياة، وإعادة بنائها! فكان لذلك مصطلح القرآن – كما تعامل معه رحمه الله - هو المفتاح الأساس؛ لفهم كليات رسائل النور.

وإنما الموفق من وفقه الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

ــــــــــــــانتهى.

---

[156] الكلمات:1/293

[157] صيقل الإسلام:8/123

أثر "مدرسة المنار" في تجديد فهم المصطلح القرآني
(من خلال تفسير المنار)(*)

أ.د. الشاهد البوشيخي(**)

1- مقدمة في مركزية المصطلح القرآني في التجديد :

1-1 - التجديد للأمة اليوم قلبا وقالبا فريضة شرعية، وضرورة حضارية؛ ذلك بأن البشرية على حافة الانهيار، يدعّها عبّاد العجل دعًّا إلى الدمار، وتسوقها العولمة سوقا، بكيدها العتيد، ومكرها الشديد، وأذرعها العالمية الجهنمية، بنوكا ومنظمات، إلى النار: تستصرخ ولا من صريخ، وتتظلم إلى من فيه الخصام وهو الخصم والحكم. قد أحكم الدجال الأعور قبضته عليها، فخنق الأنفاس، ومص دماء الناس، ولا خلاص للناس كل الناس، إلا بظهور دين رب الناس، ملك الناس، إله الناس، على يد خير أمة أخرجت للناس.

وبما أن أمتنا اليوم قد شاخت ووهنت، بما كسبت، حتى صارت قصعة طعام يتهارش على خيراتها شر المفترسين، وروح القرآن التي هي روحها التي لا حياة لها ولا وحدة بدونها، قد خرجت أو كادت تخرج منها؛ فتنازعت وفشلت وذهبت ريحها.

بما أن الأمر كذلك، فقد صار فرضا على كل من بقي حيا في الأمة أن يجدد شبابها، ويعيد بناءها، لتستأنف رسالتها؛ صار فرضا تسوية الإنسان فيها وتعديله من جديد، وصار فرضا إحلال القرآن فيها ونفخ روحه من جديد، لتعود كما بدأت خير أمة أخرجت للناس، فتُخلّص الناس كل الناس، من طاغوت البنوك وعولمة الافتراس، وتعيد البشرية، التي أكبّها عبدة العجل على وجهها، تمشي سوية على صراط مستقيم.

1-2 - أجل، لقد صار تجديد بنيان الأمة فريضة لتعود، وصار تجديد كيان الأمة ضرورة لتنقذ، ولا سبيل إلى شيء من ذلك بغير تجديد فهم الأمة للقرآن. إن القرآن المجيد الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وتلقاه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، هو هذا الذي بين دفتي المصحف اليوم بين أيدينا، ولكن ما وعته قلوبهم منه، هو بالقطع غير ما وعته قلوبنا؛ وإلا فلماذا اتقوا وفجرنا، ولماذا أقبلوا على الله وأدبرنا، ولماذا أحسنوا في عبادتهم لله وأسأنا، ولماذا تآخوا فيما بينهم وتعادينا، ولماذا توحدوا في أمة وتفرقنا، ولماذا جاهدوا في سبيل الله ليكون الدين كله لله وقعدنا...، ولماذا؟؟... ولماذا...؟؟.

إن القرآن نصا هو القرآن، وإن الإنسان بشرا هو الإنسان، ولكن الذي غاب قطعا هو دخول ذاك القرآن في قلب هذا الإنسان. وصدق الله العظيم إذ يقول عن أثر القرآن في القلب الذي هو الإيمان : (قالت الأعراب آمنا قل لم تومنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) (الحجرات: 14).

فالفرق بيننا وبينهم إذن في الفهم، في الصورة والقدر الذي وصل من القرآن إلى القلب فضخَّه في الكيان، في ماء السماء المبارك الطهور الذي

قبلته القلوب، فأنبتت الحبّ والخير الكثير، والهداية والرحمة للعالمين.

1-3- وما لم يتجدد فهم الأمة للقرآن فلن تتجدد الأمة، ولن يتجدد فهم القرآن حتى يتجدد فهم مصطلحات القرآن، مفاهيم ونسقا؛ ذلك بـ "أن الوحي قرآناً وسنةً، مجموعة من المفاهيم؛ إذا حصِّلت حصِّلت كليات الدين، وإذا لم تفقه لم يفقه الدين... لكن تلك المفاهيم ليست معزولة عن بعضها بعضا، وليست منثورة كيفما اتفق، وإنما هي فصوص في العقد الفريد للإسلام، منظومة نظما بديعا رائعا في نسق؛ إذا نظر إليها وقد انتظمت أفقيا، تجلّى نسقها التصوري الشامل الكامل ... وإذا نظر إليها وقد تتابعت تاريخيا في التنزل، تجلى نسقها المنهاجي التنزيلي المتكامل... وهي في الحالين لا تقبل المسَّ بما يخل بنسقيتها لنسقيتها: لا تقبل زحزحة في المواقع أو تغيرا في الترتيب، ولا تقبل تغييرا للأحجام أو الألوان، وإلا صار الأمر إلى شيء آخر غير الإسلام. وقد دخل من هذا الباب على المسلمين عبر التاريخ الطويل العريض شر طويل عريض، مس التصور والتنزيل معا.

ولإعادة الأمور إلى نصابها، لابد من إعادة مفاهيم الوحي بعد تحصيلها إلى مواقعها وأحجامها، وإلا استمر تشوه الدين، وازداد فساد المسلمين.

وضرورة فقه النسق، كضرورة فقه المفاهيم لفقه الدين؛ ذلك بأن... الدين مفهوميا خلقة سوية مضبوطة المكوِّنات، والمقاييس، والأبعاد، والرتب، وأي تغيير يمس شيئا من ذلك ليس منه، هو تغيير لدين الله، ولخلق الله ولفطرة الله {فَأَقِم وَجْهك للدِّين حنِيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم}(الروم: 30).

ولا سبيل إلى فقه النسق، أو المفاهيم المكوِّنة له، بغير دراسة ألفاظ القرآن الكريم؛ فهي مفتاح الوصول

إلى ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، قرآنا وسنة، وهي المدخل المصطلحي المقطوع بأنه من الوحي"(1).

2 - تحديد المفاهيم الأساسية للموضوع:

2-1- مفهوم المصطلح القرآني

يقصد بالمصطلح القرآني إجمالا: كل لفظ قرآني عَبَّر عن مفهوم قرآني.وتفصيلا: كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم، مفردا كان أم مركبا، اكتسب داخل الاستعمال القرآني خصوصية دلالية قرآنية جعلت منه تعبيرا عن مفهوم معين له موقع خاص داخل الرؤية القرآنية ونسقها المفهومي.
فيدخل فيه "كل أسماء المعاني وأسماء الصفات المشتقة منها في القرآن الكريم، مفردة كانت أم مركبة، ومطلقة كانت أم مقيدة، وعلى الصورة الاسمية الصريحة، أم على الصورة الفعلية التي تؤول بالاسمية."(2). وذلك لأنها "اختصت بمعان معينة، من بين معان أخرى تدل عليها في أصل الوضع اللغوي، لتصبح مستعملة فيها على وجه الاطراد في موارد متعددة من القرآن الكريم، قد تكثر أو تقل بحسب اختلاف دورها في الخطاب المؤسس لقيم الدين في النفوس"(3).

2-2 - مفهوم "تجديد الفهم":

يقصد بتجديد الفهم إرجاع المعنى الذي استفيد من النص، وهو غير صواب، إلى وجهه الصواب، حتى كأنه كما كان أول مرة جديدا لم يطرأ عليه تغيير.
وهو بالنسبة إلى مفاهيم الدين رسالة الأنبياء المرسلين والعلماء المصلحين، يجددون ما بلي من أمر الدين، ويصلحون ما أفسد الناس من فَهْم لكلام رب العالمين.
"ولقد كان مدار وحي الرحمن جل وعلا، مذ آدم حتى محمد عليهما الصلاة والسلام، على حفظ مصطلح الذكر من أن يصيب مفهومه تغيير أو تبديل؛ فتفسد الرؤية، ويقع الإفساد في الأرض {فأقم وجهك للدين

حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم}(الروم: 30).
وإنما مدار عمل الشيطان وحزبه، مذ إبليس إلى قيام الساعة، على محاولة تغيير المفهوم وتبديل المصطلح، أي تغيير الدين، والفطرة، والخلق. {ولآمرنهم فليغيرن خلق الله}(النساء: 119)، وفي الحديث القدسي: "خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم.."(4).
وما الجهود التي بذلها المستكبرون في الأرض، المعبِّدون الناس للطاغوت، قديما وحديثا، إلا صور من تلك المحاولات لتغيير المفهوم وتبديل المصطلح. وهذا فرعون ومومن آل فرعون في القديم، يتنازعان مفهوم مصطلح "سبيل الرشاد" {قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد}(غافر: 29)، {وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد}(غافر: 38). وها هو اليوم مصطلح شريف كالجهاد، يغير مفهومه المتكبرون في الأرض... وكذلك الأمر في أغلب المصطلحات التي تقوم عليها الحياة؛ كالخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل، والسلام والإجرام،.. غيّر مفاهيمها العالون في الأرض أصحاب الأهواء، ولووا أعناقها كما لوى فرعون عنق مفهوم الفساد، وهو يقول عن موسى عليه الصلاة والسلام {إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الارض الفساد}(غافر: 26).
2-3- مفهوم تجديد فهم المصطلح القرآني:
وإذن فالمقصود من تجديد فهم المصطلح القرآني بوضوح واختصار هو فهمه كما كان يفهم أول مرة، وكأنه جديد يتنزل، قد جُرِّد من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين عبر القرون. وما أكثر ما لفَّت القرون من خِرَق، وشوَّهت من مفاهيم، بعد خير القرون!. " وإذا تم ضبط مفاهيم القرآن الكريم، فقد تم تبعا لذلك ضبط مفاهيم الدين القيم؛ لأن السنة بيان؛ به بعد القرآن يُضْبَط فهم القرآن، لتكوين الميزان، وعطاء

العصور اجتهادات أو انحرافات، تُقبل أو ترفض تبعاً للميزان. ومتى تجدد فهم المفاهيم، فقد تعبد الطريق لتجديد أمر الدين "(5).

3 - عناية "المنار" بتجديد فهم القرآن :

3-1- "المنار" التفسير هو "المنار" المدرسة رؤيةً ومنهاجا: ألفه الثلاثة المؤسسون من خلال تأليف بعضهم لبعض، وحضور بعضهم في بعض، بالتتابع التاريخي: السيد جمال الدين الأفغاني، وتلميذه الشيخ محمد عبده، وتلميذ التلميذ الشيخ محمد رشيد رضا، رحمهم الله تعالى، كلهم حصر الإشكال في ابتعاد الأمة عن القرآن الكريم فهما وعملا، وكلهم حصر الحل في فهم القرآن والعمل به على الوجه الصحيح كما كان الأمر أول مرة. لأن "المقصد الحقيقي... هو الاهتداء بالقرآن"(6) ولا سبيل إلى ذلك بغير الفهم الصحيح للقرآن:

يقول السيد جمال الدين الأفغاني، في سياق استنكاره لدعوة سد باب الاجتهاد: "إن الله بعث محمدا رسولا بلسان قومه "العربي" ليفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقول لهم {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} وقال: {إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} وفي مكان آخر {إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون} فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم، ولكي يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منها، فمن كان عالما باللسان العربي؛ وعاقلا غير مجنون... جاز له النظر في أحكام القرآن، وتمعنها والتدقيق فيها واستنباط الأحكام منها ومن صحيح الحديث والقياس"(7).

ويقول تلميذه الشيخ محمد عبده: "إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر، وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية فإنه يفهم من القرآن ما يهتدي

به، ومن كان أميا أو عجميا فإنه ينبغي له أن يسأل القارئين أن يقرؤوا له القرآن ويفهموه معناه"(8).
ويقول تلميذ تلميذه الشيخ محمد رشيد رضا: "أقول الآن: إن القرآن هو حجة الله البالغة على دينه الحق، فلا بقاء للإسلام إلا بفهم القرآن الكريم فهما صحيحا، ولا بقاء لفهمه إلا بحياة اللغة العربية، فإن كان باقيا في بعض بلاد الأعاجم، فإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم...ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها"(9).
2-3 - وقد عني "المنار" بمصطلح الفهم: فهم القرآن كثيرا، مطلقا ومقيدا، ومقصوده منه "الفهم الصحيح" له، ذلك الفهم الذي به يعرف الداء والدواء، ويكون النظر والتلقي للعلم. جاء في تفسير قوله تعالى:{يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون}(البقرة:20): "هذا النداء الإلهي المشعر بأن نسبة الناس الأولين إلى الله تعالى كنسبة الآخرين واحدة: هو الخالق وهم المخلوقون، وهو المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون، حجة علينا وعلى جميع من استن بسنة ذلك الصنف من قبلنا (قال شيخنا) وأخص طلاب علوم الدين بالذكر فينبغي للطالب أن يوجه نفسه إلى فهم القرآن، ويحملها على الاهتداء به، فإذا هو فعل ذلك تظهر عليه آداب الإسلام...ومن اشتغل بهذا حق الاشتغال وصل إلى معرفة أمراض المسلمين الحاضرة، ومنابع البدع التي فشت فيهم، ومثارات الفتن التي فرقتهم، ويعرف علاج ذلك. وأن من ذاق حلاوة القرآن لا ينظر في كتاب، ولا يتلقى علما، إلا ما يفتح له باب الفهم في القرآن أو ما يفتح له بابه القرآن فيجده مرآته، وما عدا ذلك مبعد عنه، والبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله تعالى وذلك هو الضلال البعيد"(10).
وقد بلغ من اهتمام "المنار" بـ "الفهم" أن جعله مساويا "للتلاوة"، معبرا بها عنه في قوله تعالى {لذين آتيناهم

الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يومنون به} قال "الأستاذ الإمام: عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلي أن ذلك هو المقصود من التلاوة التي يشترك فيها أهل الأهواء والبدع مع أهل العلم والفهم، والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفي رضاهم عن النبي صلى الله عليه وسلم نفيا مؤكدا، لا حظ لهم من الكتاب إلا مجرد التلاوة وتحريك اللسان بالألفاظ، لا يعقلون عقائده، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه؛ لأنهم استغنوا عنه بتقليد بعض الرؤساء والاكتفاء بما يقولون، فلا عجب إذا أعرضوا عما جاء به النبي ولا ضرر في إعراضهم. وأما الآخرون فإنهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين، يعقلون أن ما جاء به هو الحق الذي يتفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم، وفي نظام معايشهم، فيؤمنون به وإنما ينتفع بإيمان أمثالهم.
وجملة القول أن هذا التعبير أفاد حكما جديدا وإرشادا عظيما، وهو أن الذي يتلو الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، فلا حظ له من الإيمان بالكتاب لأنه لا يفهم أسراره ولا يعرف هداية الله فيه. وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية وإن كان القارئ يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها، لأن هذا الفهم من قبيل التصور، وما التصور إلا خيال يلوح ويتراءى، ثم يغيب ويتناءى، وإنما الفهم فهم التصديق والإذعان ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشدا ملاحظا أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيهتدي ويرشُد، والمقلدون محرومون من هذا فلا يخطر لهم ببال أنهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله تعالى وإنما الهداية عندهم محصورة في كلام رؤسائهم الدينيين، ولا سيما إذا كانوا ميتين"(11).
3-3 - هذا الفهم المتدبر للكتاب، المستهدي به في الأمر كله، هو التفسير الجديد الذي يمثله "المنار" ويدعو إليه. جاء في مقدمة التفسير

المقتبسة من درس الأستاذ الإمام بالمعنى، مع البسط والإيضاح "... والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة فإن هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله"(12).

وهو واجب على الجميع كل بقدر طاقته، جاء في المقدمة السابقة: "إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لا فرق بين عالم وجاهل. يكفي العامي من فهم قوله تعالى:{قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون...} (المومنون: 1-2) ما يعطيه الظاهر من الآيات، وأن الذين جمعت أوصافهم في الآيات الكريمة، لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى، ويكفي في معرفة الأوصاف: أن يعرف معنى الخشوع والإعراض عن اللغو، وما لا خير فيه، والإقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية، وبذل المال في الزكاة والوفاء بالعهد، وصدق الوعد، والعفة عن إتيان الفاحشة، وأن من فارق هذه الأوصاف إلى أضدادها فهو المعتدي حدود الله، المتعرض لغضبه، وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان، ومن أهل أي لغة كان"(13).

وهذه المرتبة في التفسير أو الفهم "هي التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد {ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر}(لقمر:40)" (14).

"وهناك مرتبة تعلو على هذه وهي من فروض الكفاية"(15)، و"لا تتم إلا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن...

ثانيها: الأساليب، فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة.

ثالثها: علم أحوال البشر... فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر... ومن العلم

بأحوال العالم... ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه...
رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن؛ فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة...
خامسها : العلم بسيرة النبي وأصحابه..." (16).
والتفسير في هذه "المرتبة العليا"(17) جديد مجدد للفهم، و"هو الذي يستجمع تلك الشروط لأجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام. على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، ليتحقق فيه معنى قوله "هدى ورحمة" ونحوهما من الأوصاف. فالمقصد الحقيقي وراء تلك الشروط والفنون: هو الاهتداء بالقرآن.
قال الأستاذ الإمام: وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير"(18).

4 - تركيز "المنار" على تجديد فهم المصطلح القرآني:

لقد تقدم أن لا تجديد لفهم القرآن ما لم يتجدد فهم مصطلحات القرآن، وذلك ما صدر عنه "المنار" وجلاه في عدة أمور:

4-1- اعتباره أن أول الشروط في "الفهم الصحيح" للقرآن: "فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن"(19)؛إذ منها الانطلاق الصحيح للفهم الصحيح، والتعبير بـ"حقائق" مُشعرة بمستوى الفهم والتجديد المطلوب فيه.

4-2 - اعتماده دلالة "زمن التنزيل" في فهم حقائق الألفاظ المفردة "بحيث يحقق المفسر ذلك -كما قال- من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان، فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد... فعلى المدقق أن يفسر

القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله"(20).

وهذا الأمر في غاية الأهمية لضبط الفهم الصحيح للقرآن، وهو من أهم شروط تجديد المصطلح القرآني، وإلا صرنا إلى قرآن غير القرآن، وحملنا ألفاظه ما لا تحتمله ألفاظ ذلك الزمان.

4-3 - إبعاده "الاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى" (المنار 1/24) في فهم "كلمات القرآن"(21) وتفسيرها. يقول في سياق حديثه عن "فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن": يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة، ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب. فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى"(22).

وهذا الشرط مكمل لسابقه، وتحقيقه على الوجه الأمثل متوقف على إنجاز "مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية" الذي يدعو إليه، منجِزًا ما استطاع منه، معهد الدراسات المصطلحية بفاس.

4-4 - اختياره فهم ألفاظ القرآن من القرآن، بدراسة اللفظ في القرآن دراسة تقوم على جمع المتكرر والنظر فيه، مع مراعاة السياق الخاص والعام للفظ في القرآن كله. وفي ذلك ما فيه من بذور الدراسة المصطلحية للمصطلح(23) وفي ذلك ما فيه من تجديد فهم المصطلح القرآني.

قال في آخر حديثه عن فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن: "والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه؛ بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية... وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه. وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ: موافقته لما سبق له من

القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته"(24).

هذه الشروط المجملة المفصلة، تمثل على قلتها معالم كبرى في طريق تجديد فهم المصطلح القرآني، كما تمثل وعيا منهجيا مهما ما أحوجه إلى ما يلزمه من التفصيل والتكميل لتيسير الذكر للتذكر والتذكير!

5 - منهج "المنار" في تجديد فهم المصطلح القرآني:

ألح "المنار" أثناء التفسير إلحاحا كبيرا على المصطلح القرآني(25)، وسلك في تناول المصطلحات التي جدد فهمها طريقة خاصة، تعتبر من وجه تطبيقا لما مر في الفقرة السابقة. ويمكن تلخيص تلك الطريقة في :

5-1 - تلخيص الفهم السابق بعبارات مختصرة، مع الإشارة بـ "يقولون" أو "قالوا" أو ما أشبه، إلى أن ذلك ليس له. مثل قوله عن مصطلح العبادة "ما هي العبادة؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع..."(26) وقوله عن مصطلح الهداية: "ذكر الأستاذ الإمام أولا ما قالوه في معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على ما يوصل إلى المطلوب..." (27).

5-2 - تفصيل الفهم الجديد والاستدلال له: قال عن "الصراط المستقيم": "ثم بين معنى الصراط وهو الطريق، واشتقاقه، وقراءة الصراط بالسين المهملة واشتقاقه على نحو ما في كتب اللغة والتفسير، ومعنى المستقيم وهو ضد المعوج وقال: ليس المراد بمقابل المستقيم المعوج ذا التمعّج والتعاريج بل المراد كل ما فيه انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي سالكه إليها. والمستقيم في عرف الهندسة أقرب موصل بين طرفين، وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة. وإنما قلنا: إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف؛ لأن كل من يميل وينحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خط ذي تعاريج، لأن هذا الأخير قد يصل إلى الغاية بعد زمن

طويل؛ لكن الأول لا يصل إليها أبدا. بل يزداد عنها بعدا كلما أوغل في السير وانهمك فيه.
وقد قالوا: إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل أو الحدود. ونحن نقول: إنه جملة ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم، لم سمي الموصل إلى السعادة من ذلك صراطا وطريقا؟ خذ الحق مثلا وهو العلم الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال الكون والناس، تر معنى الصراط فيه واضحا، لأن السبيل أو الصراط ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها، وكذلك الحق الذي يبين لي الواقع الثابت في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس، يشبه الحق للعقل والنفس، سير حسي، وسير معنوي، كذلك إذا اعتبرت هذا المعنى في الحدود والأحكام تجده واضحا - قسمت أحكام الأعمال إلى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه، فكان هذا مريحا لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا، فبيان الأحكام بالهداية الكبرى وهي الدين كالطريق الواضح يسلك بالعمل. ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها إلى أهوائها، كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرديهم. وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه، وضرب الأستاذ الإمام لذلك مثلا: أحد الشيوخ المتفقهين سرق كتابا من وقف أحد الأروقة في الأزهر مستحلا له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به، وهو يحصل بوجود الكتاب عنده، وأنه قد يفوت النفع ببقائه في الرواق حيث وضعه الواقف؛ إذ لا يوجد فيه من يفهمه مثله بزعمه!! واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل"(28).
3-5 **- تقويم واقع الأمة بالفهم الجديد:** ومثاله، زيادة على آخر النص السابق، ما جاء في فهمه لـ"صراط الذين أنعمت عليهم" آخر الفاتحة: "قال الأستاذ: الصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الحق؛ ولكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه في نحو سورة

العصر، وإنما بينه بإضافته إلى من سلك هذا الصراط كما قال في سورة الأنعام {فبهداهم اقتده}(الأنعام : 90) وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على إجمال ما فصل في القرآن حتى من الأخبار، التي هي مثل الذكرى والاعتبار، وينبوع العظة والاستبصار. وأخبار القرآن كلها تنطوي في إجمال هذه الآية.
قال : فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى. ونحن نقول: إن الفاتحة أول سورة نزلت، كما قال الإمام علي رضي الله عنه، وهو أعلم بهذا من غيره، لأنه تربى في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، وأول من آمن به، وإن لم تكن أول سورة على الإطلاق فلا خلاف في أنها من أوائل السور (كما مر في المقدمة) ولم يكن المسلمون في أول نزول الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم، وما هداهم إلا من الوحي، ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذه السبيل سبيل من أنعم عليهم من قبلهم، فأولئك غيرهم، وإنما المراد بهذا ما جاء في قوله تعالى: {فبهداهم اقتده} وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة. فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن بقدر الحاجة. فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص، وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم، في كفرهم وإيمانهم، وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع. فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد، ونظرنا في أحوال الأمم السالفة، وأسباب علمهم وجهلهم، وقوتهم وضعفهم، وعزهم وذلهم، وغير ذلك مما يعرض للأمم - كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن في الأرض، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار. ومن هنا ينجلي للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات، وتأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيرا من رجال الدين من

أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين، ويرغبون عنه، ويقولون إنه لا حاجة إليه ولا فائدة له. وكيف لا يدهش ويحار، والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو إليه هذا الدين؟ {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات} (الرعد : 6) (29).
وهذه العناصر الثلاثة إنما تظهر بقوة، وتحضر كاملة، في فهم المصطلحات الكبرى التي تمثل بعض كليات الدين كمصطلح العبادة مثلا.(30)

6- نتائج تجديد المنار لفهم المصطلح القرآني:

لقد كان للجهد التجديدي الذي بذله أصحاب "المنار" في فهم المصطلح القرآني أثر بالغ لا يكاد يقدر في الأمة كلها، وخصوصا إذا وضع في ظروفه الخانقة القاتلة للتجديد، لقد بدا وسط ظروفه المظلمة كبركان تفجر نارا ونورا: نورا للمتعطشين للفجر، ونارا على المتحجرين كالصخر. ومن خبر المنار أيقن أن كل الصيد في جوف الفرا.

وللتلخيص يمكن حصر تلك النتائج الضخمة في ثلاث :

6-1- تخليص المصطلح القرآني من كثير من الشوائب التي علقت به عبر القرون، وما أكثرها! وفي ذلك ما فيه من إعادة المصطلح القرآني إلى شبابه الدلالي وفاعليته الأولى يوم أنزل، وفعله الفعّال في القلوب والهمم والعزائم، وتحريره من أغلال لغة المتأخرين ومفاهيمهم البشرية الضيقة بالقياس إلى رحابة مفاهيم القرآن وسعتها الربانية.
وما أكثر الأمثلة في "المنار" على هذا التخليص نجتزئ منها بهذا، جاء في فهم قوله تعالى: {الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير}: "كتاب أحكمت آياته أي هذا كتاب عظيم الشأن (كما أفاده التنوين) جعلت آياته محكمة النظم والتأليف، واضحة المعاني بليغة الدلالة والتأثير، فهي كالحصن المنيع، والقصر المشيد الرفيع، في إحكام البناء، وما يقصد به من

الحفظ والإيواء مع حسن الرواء، فهي لظهور دلالتها على معانيها ووضوحها لا تقبل شكا ولا تأويلا، ولا تحتمل تغييرا ولا تبديلا، (ثم فصلت) أي جعلت فصولا متفرقة في سوره ببيان حقائق العقائد، والأحكام والحكم والمواعظ، وسائر ما أنزل الكتاب له من الفوائد، كما يفصل الوشاح أو العقد بالفرائد، فالإحكام والتفصيل فيه مرتبتان من مراتب البيان مجتمعتان، لا نوعان منه متفرقان يختلفان في الزمان، أو فصلت بعد الإجمال، كما ترى في القصص القصار والطوال، وقد أبهما ببناء فعليهما للمفعول، ثم بينا بجعلهما (من لدن حكيم خبير) وهو أبلغ من إسنادهما إليه ابتداء، أي من عند حكيم كامل الحكمة هو الذي أحكمها وخبير تام الخبرة هو الذي فصلها.

هذا ما يتبادر إلى فهم العربي القح من عبارة الآية، فإذا عرضته على ما جاء في القرآن من حرفي الإحكام والتفصيل، وجدت فيه من الحرف الأول ثلاث كلمات الأولى : قوله تعالى في سورة الحج {فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته}(الحج : 5) والثانية: قوله تعالى في سورة القتال ويقولون {لولا نزلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال} (محمد :20) الآية - والثالثة: قوله تعالى في سورة آل عمران {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات}(آل عمران : 7) ووجدت الإحكام في كل منهن بالمعنى اللغوي الذي بيناه آنفا. وقد حمل المقلدون المحكم في الآية الثانية على ما يقابل المنسوخ في اصطلاحهم، فقالوا سورة محكمة غير منسوخة، وهذا الحمل غير صحيح، وإن كان المراد منه صحيحا، فإن هذا الاصطلاح ليس من أصل اللغة، ولا من عرف القرآن، بل وضع بعد عصر نزوله، والآية الأولى حجة على هذا، فإن النسخ فيها غير النسخ الأصولي، ولا يصح أن يكون المعنى فإذا أنزلت سورة غير منسوخة لا كلها ولا بعضها، لأن إنزال سورة منسوخة محال في نفسه، فلا معنى إذا لنفيه، وحملوه

في الثالثة على ما يقابل المتشابه وهو الصحيح، ولكنهم اختلفوا في معنى كل منهما، وأشهر الأقوال عند أهل الكلام والأصول فيهما مخالف لمدلول اللغة وللمروي عن جمهور السلف الذي هو الحق.

قال السيد الجرجاني في الأول: المحكم ما أحكم المراد به عن التبديل والتغيير أي التخصيص والتأويل والنسخ، مأخوذ من قولهم: بناء محكم، أي متقن مأمون الانتقاض، وذلك مثل قوله تعالى: {إن الله بكل شيء عليم}(التوبة :115) والنصوص الدالة على ذات الله وصفاته لأن ذلك لا يحتمل النسخ فإن اللفظ إذا ظهر منه المراد فإن لم يحتمل النسخ فهو محكم، وإلا فإن لم يحتمل التأويل فمفسر، وإلا فإن سيق الكلام لأجل ذلك المراد فنص وإلا فظاهر، وإذا خفي لعارض أي لغير الصيغة فخفي، وإن خفي لنفسه أي لنفس الصيغة وأدرك عقلا فمشكل، أو نقلا فمجمل، أو لم يدرك أصلا فمتشابه. وقال الثاني : المتشابه ما خفي بنفس اللفظ ولا يرجى دركه أصلا كالمقطعات في أول السور، وقال التاج السبكي في جمع الجوامع:

والمتشابه ما استأثر الله بعلمه وقد يطلع عليه بعض أصفيائه. وكلا القولين خطأ كما يعلم مما فسرنا به الآية في الجزء الثاني.

وقال السيد في تعريف التأويل: هو في الأصل الترجيح وفي الشرع صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة مثل قوله تعالى: {يخرج الحي من الميت} (الأنعام :95) إن أراد به إخراج الطير من البيضة كان تفسيرا، وإن أراد إخراج المؤمن من الكافر أو العالم من الجاهل كان تأويلا" أ.هـ. وقال التاج السبكي: الظاهر ما دل دلالة ظنية، والتأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حمل لدليل فصحيح، أو لما يظن دليلا ففاسد، أولا لشيء، فلعب لا تأويل أ.هـ.

هذا الاصطلاح المفصل لهذه الكلمات فيه ما ترى - في كتب الأصول - من قيل وقال، ومذاهب وجدال، وهو ما

لم يكن يخطر في بال أحد من العرب عند قراءتها في كتاب الله تعالى، بل كانوا يفهمونها بمدلولها اللغوي المحض،
فأما المحكم فهو ما تقدم.
وأما التفصيل في الآية فقد جاء مكررا في أكثر من عشرين موضعا من عشر سور مكية، وفي موضع واحد من سورة التوبة المدنية، وأكثرها في تفصيل الآيات القرآنية والعقلية، وبعضها في تفصيل الكتاب، وبعض آخر في تفصيل الأحكام، ونوع آخر أعم وهو {تفصيل كل شيء} أي ما يتعلق بهداية الدين، وإصلاح أمور المكلفين، وكلها داخل في المعنى اللغوي الذي حررناه..."(31).
6-2- تعبيد الطريق إلى إصلاح واقع الأمة بالقرآن : فبظهور "المنار" وتفجر بركانه انهدمت الحواجز الفاصلة بين الأمة والقرآن، وصار القرآن يتدخل تدخلا مباشرا في الواقع؛ مصححا لمنهج رؤيته، ضابطا لميزان تقويمه، ناقدا ناصحا لأهل الحل والعقد فيه، محررا للمستضعفين، مزلزلا للمستكبرين، نافخا الروح في الأموات الذين لديهم استعداد للحياة، جاعلا الآيات هي القوت في كل الأوقات. والسر كل السر في تجدد فهم القرآن الذي أساسه تجدد تفهم مصطلحات القرآن.
لقد صحح "المنار" قبلة المفسر، واسترجع أراضي الواقع المغتصبة إلى صلب اهتمامه، وجدد وحدد له الرسالة في إصلاح ما فسد من واقع الأمة.
استمع إلى الأستاذ الإمام وهو يتحدث عن التفسير زمن "المنار": "التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون: هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير على ما في كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا}(النساء : 81). وليت أهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم في العلم بمعاني الكتاب،

ثم يبثونه في الناس، ويحملونهم عليه، ولكنهم لم يطلبوا ذلك، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، ويمارون فيها من يباريهم في طلبها، ولا يخرجون لإظهار البراعة في تحصيلها عن حد الإكثار من القول، واختراع الوجوه من التأويل، والإغراب في الإبعاد عن مقاصد التنزيل.
إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبيه الذي بين لنا ما نزل إلينا: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم}(النحل : 44)، يسألنا هل بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بُلِّغتم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن، واهتديتم بهدي النبي واتبعتم سنته؟ عجبا لنا ننتظر هذا السؤال، ونحن في هذا الإعراض عن القرآن وهديه، فيا للغفلة والغرور!!"(32).
واستمع إلى الأستاذ الإمام إثر ذلك، وهو يحكم على واقع الأمة، بناء على واقع معرفتها بالقرآن: "معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى: أول ما يلقن الوليد عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم "الله" تبارك وتعالى، يتعلمه بالأيمان الكاذبة كقوله: والله لقد فعلت كذا وكذا، والله ما فعلت كذا، وكذلك القرآن يسمع الصبي ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى، ولا يعقل معنى ذلك، ثم لا يعرف من تعظيم القرآن إلا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم. وذلك بأمرين:
أحدهما: اعتقاد أن آية كذا إذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى، وأن من حمل القرآن، لا يقربه جن ولا شيطان، ويبارك له في كذا وكذا، إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة؛ أكثر مما هو معروف للخاصة، ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول: إن فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جدا، ولكنها (ويا للأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الأضرحة ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها.... هذا الضرب من تعظيم

القرآن نسميه -إذا جرينا على سنة القرآن- عبادة للقرآن لا عبادة لله به.
ثانيهما: الهزة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومة التي تصدر ممن يسمعون القرآن، إذا كان القارئ رخيم الصوت حسن الأداء عارفا بالتطريب على أصول النغم، والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم، بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن. وأعني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصبيه أساليب القرآن بعجائبها، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه. لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذا جافا لم يصحبه ذلك الذوق، وما يتبعه من رقة الشعور، ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر، والفهم والتدبر.
لهذا كله يمكننا أن نقول: إن الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.... كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجدا لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور، فهل يقاس هذا بأي متعلم اليوم؟"(33).
6-3- إعادة القرآن الكريم إلى مركزيته في الإصلاح: وهذه أمّ النتائج وأفضل الفضائل؛ نحن أمة أخرجت من كتاب ، وصنعت بكتاب، وقبل الكتاب لم يكن يحسب لها أي حساب، وبعد الكتاب صار يحسب لها ألف حساب، وما هجرت الكتاب بعد إلا وسقطت من الحساب.
إننا ما دخلنا التاريخ بمنهج فلان أو فلان، ولكننا دخلنا التاريخ بهداية القرآن.
ولذلك فالتجديد الذي هُدي إليه "المنار" وهَدَى إليه هو التجديد: تجديد فهم القرآن.
والأساس الذي قام عليه هو الأساس: أساس إصلاح الأمة بالقرآن.
والهدف الذي سعى إليه هو الهدف: هدف الاستهداء والتفاعل المباشر مع القرآن.

ومتى حجب القرآن حاجب، وحال بينه وبين الناس حائل، فقد قُطِع بوجه من الوجوه ما أمر الله به أن يوصل. وما أكثر قطاع الطريق عبر القرون:

- المحارب لانتشار اللسان العربي في الأمة قاطع طريق.
- والمفسر للقرآن بغير دلالة زمن التنزيل قاطع طريق.
- والملزم للناس بهدى كتابٍ غير كتاب الله عز وجل قاطع طريق.
- والمتخذ إسوة غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو المُبَيِّنُ، قاطع طريق.
- والمبعد للقرآن من التعليم والإعلام والحياة قاطع طريق.

وغيرهم... وغيرهم... ممن يمنع وصول القرآن إلى الأمة، أويمنع وصول الأمة إلى القرآن. كلهم قاطع طريق.

7- خاتمة في ضرورة الدراسة المصطلحية لتكميل التجديد:

لقد رفع "المنار" منذ قرن أو يزيد، واستجاب من استجاب للمشروع الجديد، وظل النداء طوال القرن يجوب الآفاق، باحثا عمن يكمل البناء، ثم لاح بآخره منهج يظهر أنه مفيد أو جد مفيد في تكميل ذلك البناء، إنه حسب ما جرب في حالات بالمغرب فصَحَّ: منهج الدراسة المصطلحية الذي يُسْعَى من وراء تطبيقه على المصطلح القرآني كله إلى إنجاز المعجم المفهومي للقرآن الكريم؛ تدرس فيه المصطلحات مصنفة حسب الأنساق، ثم تُعرض عرضا شاملا في إطار "النسق المفهومي العام للخلوص إلى الفهم الكلي النسقي للقرآن الكريم"(34).

(ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا).

الهوامش:

1) مفهوم التأويل في القرآن الكريم والحديث الشريف/ التقديم: أ- ج.

2) نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية، ص:2.
3) مصطلح الشهادة على الناس في القرآن الكريم وأبعاده الحضارية لعبد المجيد النجار ضمن أعمال ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية: 1/189.
4) أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.
5) نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية ص 5.
6) المنار 1/26.
7) خاطرات جمال الدين الأفغاني 111 -112.
8) المنار 1/364. وينظر عن الفهم 1/ 362- 363، 152- 153.
9) نفسه 1/28
10) نفسه 1/152-153.
11) نفسه 1/362-363
12) نفسه1/21.
13) نفسه1/23. // 14) نفسه.
15) نفسه. // 16) نفسه1/23- 25.
17) المنار1/23. // 18) نفسه1/25- 26.
19) نفسه1/23. // 20) نفسه1/23- 24.
21) نفسه1/24. // 22) نفسه.
23) نظرات في المصطلح والمنهج ص: 22- 31 .
24) المنار: 1/24.
25) وإذا يسر الله تعالى إخراج معجم المصطلحات القرآنية المشروحة في "المنار" فسيظهر ذلك بوضوح.
26) نفسه1/51. // 27) نفسه1/56.
28) نفسه 1/58-59
29) نفسه 1/59-60.
30) نفسه:1/51-52
31) نفسه 12/ 4-6.
32) نفسه 1/ 26.
33) نفسه 1/ 26- 27.
34) نحو منهج لدراسة مفاهيم الألفاظ القرآنية ص 7.

(*) ألقيت هذه الورقة في ندوة مدرسة المنار و دورها في الإصلاح الاسلامي الحديث . القاهرة 8- 9 أكتوبر 2002.

(**) د. الشاهد البوشيخي رئيس وحدة البحث في القرآن والحديث بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس ورئيس معهد الدراسات المصطلحية بالجامعة نفسها.

القرآن العظيم

((هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض. وكذا هو مفتاح الحقائق والشؤون المضمرة في سطور الحادثات. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية، والالتفاتات الأبدية الرحمانية. وكذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي. وكذا هو خريطة للعالم الأخروي. وكذا هو قول شارح، وتفسير واضح، وبرهان قاطع، وترجمان ساطع؛ لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه.

وكذا هو مُرَبٍّ للعالم الإنساني. وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية. وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد الهادي إلى ما خلق البشر له. وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك كتاب حكمة. وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة. وكما أنه كتاب ذكر، كذلك هو كتاب فكر.

وكما أنه كتاب واحد، لكن فيه كتب كثيرة، في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية. كذلك هو كمنزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل؛ حتى إنه أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من

أهل المسالك المتباينة، من الأولياء والصديقين، ومن العرفاء والمحققين؛ رسالةً لائقةً لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره، حتى كأنه مجموعة رسائل.) بديع الزمان النورسي في: إشارت الإعجاز:5/22 والمكتوبات:2/267.